التمهيد

(أبو حيان التوحيدي
السيرة والعصر
ومكونات فكره وثقافته)

كان لابد للتَّعَرُّفِ على اتجاهات النَّقد الأدبي عند التَّوحيدي مِنْ أَنْ نَتَعَرَّفَ على التوحيدي نفْسِهِ؛ مسيرةِ حياتِهِ، وشيوخِهِ الذين تَتَلْمَذَ عليهم، أو الْتَقَى بهم، وسَمِعَ منهم، وأَهَمِّ مؤلفاته التي وَصَلَتنا، أو تلك التي لَمْ تَصِلْنا بَعْد، ومَصادِرِه التي اعْتَمَدَ عليها في كُتُبه ومؤلفاته، ومَنْ نَقَلُوا عَنْ التَّوحيدي في كُتُبهم، وما كان يَمُوج به عَصْرُه من تيارات واتجاهات ومذاهب فكرية وأدبية، لِنُدْرِكَ إلى أي مدى أَثَّرَتْ كل هذه المُقَوِّمات والعناصر على شَخْصية التَّوحيدي وثَقَافته، ومِنْ ثَمَّ على اتِّجاهاته النَّقدية والأدبية.

وليس مِنَ المَنْطِقي أنْ تَتَنَاولَ الدِّراسةُ كُلَّ شَيءٍ عن حياة التَّوحيدي، ولا كُلَّ شَيءٍ عَنْ عَصْره الذي نَشَأَ فيه، فَهَذَا ما لا تَتَحَمَّلُه تلك الدراسة، ومن ناحية أُخْرى فَالدِّراسة لَيْسَت تَرْجَمةً للتَّوحيدي بِقَدْرِ ما هي مُحَاولة لِرَصْد أَبْرَز الاتِّجاهات النَّقْدية التي ظَهَرَت في مُؤَلَّفاته، وتُمَثِّل في الوقت ذاته اتِّجاهات القَرْن الذي عَاش فيه، لِذا كان علينا أنْ نُرَكِّزَ على المَعْلومات الكَاشِفة، والحَقَائق المُرْشدة التي تُعِينُ على تَصَوِّر المَلامِح العَامَّة لِحَياة التَّوحيدي، وأَثَرِها على تَكْوِين تِلك الاتِّجاهات النَّقدية مَوْضِع الدراسة.

ومن الضَّروري أنْ تَكونَ البدايةُ مِنْ حَيْثُ تَاريخ مَوْلِده، وذلك لَيْسَ لِمُجَرَّد التَّعَرُّف على هذا التَّاريخ، فَنَقُولُ وُلِدَ عامَ كَذا، ومَات عَام كذا؛ لكنَّ التَّعرف على تَاريخ مَوْلِده، ومَكانِ نَشْأَته يُعِينُ على تَحْدِيد بِداية العَصْر ومَلامِح المَكَان الذي نَشَأَ فيه، وعلى تَحْدِيد المُؤَثِّرات الزَّمانية والمَكانية التي أَلْقَت بِظِلالِها عَلَى شَخْصِيَّةِ التَّوحيدي، وعلى فِكْرِهِ وأدبِهِ وأسلوبِهِ واتجاهاتِه، وعلينا أنْ نُؤَكِّد في البداية أنَّ التَّوحيدي نَفْسَهُ، لمْ يَهْتَم بِسَرْدِ سِيرَةِ حياته مُتَتَابعة أو مُتَفَرِّقة، فهو (لَمْ يُشِرْ مِنْ بَعِيد أو مِنْ قَرِيب إلى نَسَبِهِ أو إلى أُسْرَته)[1]، فالتَّوحيدي (الذي أَرَّخَ للفِكْر والأدب في عَصْره، والذي لمْ يَتْرُكْ شَاردةً ولا واردةً عن رِجالات عَصْرِه، نَسِيَ أو تَنَاسَى أنْ يُؤَرِّخ لِنَفْسِه)[2].

(1) أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي ص 22.

(2) تيارات الفكر والأدب والفن في مؤلفات أبي حيان التوحيدي للدكتور أحمد فهمي عيسى ص 60.

لكنْ عَلى الرَّغْم مِن إِغْفَالِه الحديث عن نَسَبِه أو أُسْرَته أو نَشْأَته الأُولى، كَعَادة الكَثير مِن الكُتَّاب والمُؤَلِّفين والعُلَماء في عَصْره وما بَعْد عَصْره في إِغْفَال الكِتابة عَن أَنْفُسهم بِشَكْلٍ تَوْثِيقي مَقْصُود، كانت هناك إِشَارات خَاطِفة مَبْثُوثة في بَعْض كُتُبه ورسائله يَتَحَدَّث فيها عن أَحْواله، وما مَرَّ به مِنْ مَواقف، منها ما كَتَبَه عن سَبَب تَحْرِيرِه لِرسالة (الصَّداقة والصَّديق) ولِمَنْ أَهْدَاها وتَاريخ ذلك[1]، وما ذَكَرَه من إِشارات إِلى مِهْنة الوِرَاقَة التي كان يَحْتَرِفُها وسَمَّاها حِرْفَة الشُّؤْم[2]، ثُم ما كان مِن ذِكْرِه لِأَسْماء مَنْ تَتَلْمَذَ عليهم، أو الْتَقَى بهم وسَمِع منهم من علماء وشيوخ وأدباء، وما كان من ذِكْرِه للوُزراء والأَعْيان الذي الْتَقَى بهم وتَعامل معهم، ومِنها قِصَّته مع الوَزِيرَيْن الصَّاحب ابن عَبَّاد ت 385هـ، وابن العَمِيد ت 367هـ، والتي ضَمَّنَها كتابه (أَخْلَاق الوَزِيرَين)، ومواضع أُخْرى من كُتُبِه، وما كان مِن إِحْرَاقِه لِكُتُبِه ورِسَالِته التي بَرَّرَت لذلك، وهي الرِّسَالة التي سَجَّلَها ونَقَلَها يَاقوت الحموي في مُعْجَمه[3]، كَما سَنَرى كُلَّ ذلك وغَيْره في مَوْضِعه من تلك الدراسة..

كلُّ هذه الإِشارات وغَيْرها سَاعَدَتْ بلا شَك الذين كَتَبُوا عنه، وتَرْجَموا له في القَدِيم والحَدِيث عَلى تَوْثِيق سِيرَة حَيَاتِه قَدْرَ المُسْتَطاع، لَكِنَّها لم تَكُنْ كافية لِرَسْم مَعَالم شَاملة لِهَذه السِّيرَة، ولهذا نَجِدُ هناك الكَثير مِن جَوانب حَياة التَّوحيدي يَخْضَع للاسْتِنْتاج والتَّحْليل مِما رُوِيَ عنه في كُتُب التَّراجم القديمة، أو مِمَّا رَوَاه عَن نَفْسِه في كُتُبِه ورَسَائله، أَكْثَر مِما يَخْضَع لِلأَخْبار والمَرْوِيات والحَقَائق المُبَاشرة والوَاضحة، وعلى الرغم من ذلك سَوْف تَمْضِي هذه الدِّراسة في تَعَقُّب ما يُوضِّح بَعْض مَلامح حَياة وسِيرة التَّوحيدي بِدَاية مِن اسْمِه ولَقَبه وأَصْلِه.

(1) ينظر: الصداقة والصديق للتوحيدي ص 35، ورسالة الصداقة والصديق ضمن (رسالتان لأبي حيان) ص 6.

(2) ينظر: أخلاق الوزيرين للتوحيدي ص 306، والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي 1/ 5-6، 2/ 4.

(3) ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي 5/ 1929.

***** أولاً: اسمه ولقبه:**

هناك عَدَد من الأُمُور الخِلافِية التي ظَهَرت بوضوح لَدَى أَكْثر - بَلْ كُلِّ - مَنْ تَرْجَموا لأبي حيَّان التَّوحيدي، بِداية مِنْ لَقَبِه الذي لُقِّبَ به، وأَصْلِه عَرَبِيٌّ أَمْ فَارِسي، وتَاريخ مَوْلِده ومَكَانه، وَوُصُولاً إلى تَاريخ وَفَاته، وربَّما يكونُ اسْمُه هو مِما اتَّفَقَ عَليه كُلُّ مَنْ تَرْجَموا له في القَديم والحديث على السواء، فقد أَجْمَعَ هؤلاء على أنَّ اسْمَه (عَلِي بن مُحَمَّد بن العَبَّاس)[1]، وإنْ كان ابنُ خَلِّكَان ت 681هـ لَمْ يَذْكُرْ (العَبَّاس)، واكْتَفَى بأنْ ذَكَرَ (عَلِي بن مُحَمَّد التَّوحيدي البَغْدَادي).

وأَجْمَعَتْ كُتُب التَّراجم في القَدِيم والحَديث كذلك عَلى أنَّ كُنْيَتَه (أبَا حَيَّان) دُون أنْ تَذْكُر سَبَباً لهذه الكُنْيَة، ودُونَ أَنْ تُشِير إلى بداية شُهْرَته بها، والتَّوحيدي نفسُهُ عندما يُسْأَلُ من ابن العَمِيد عن كُنْيَتِه، يُجِيبُ دُون تَوْضيحٍ لِدَواعي وأسباب هذه الكُنْيَة، يقول: (فَأَمَّا حَدِيثي مَعَه، فإنِّي حين وَصَلْتُ إليه - يعني ابن العميد - قال لِي: أَبُو مَنْ؟، قُلْتُ: أبو حيَّان، قال: بَلَغَنِي أَنَّك تَتَأَدَّب، قُلْتُ: تَأَدُّب أَهْل الزَّمَان، قال: فَقُلْ لِي، أبو حيَّان يَنْصَرِفُ أَوْ لا؟، قُلْتُ: إنْ قَبِلَهُ مَولانا لا يَنْصَرِف..)[2]، فَهَلْ كان سُؤال ابن العَميد عن اسْمِ أَكْبَر أَبْنَائه حَتَّى يُكْنِيه به؟، أم

(1) ينظر ترجمة التوحيدي في: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 21/ 148 معجم الأدباء لياقوت الحموي 5/ 1923 وطبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح 2/ 687، تهذيب الأسماء واللغات للنووي 2/ 223 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان 5/ 112 تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي 8/ 837، سير أعلام النبلاء للذهبي 12/ 547 ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي 4/ 518 الوافي بالوفيات للصفدي 22/ 27 طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 5/ 286 التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل لابن كثير 3/ 159 البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي 1/ 199 الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث لبرهان الدين الحلبي ص 287، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة 1/ 185 لسان الميزان لابن حجر العسقلاني 7/ 38، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي 2/ 190، ديوان الإسلام لابن الغزي 2/ 149، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان 4/ 335 الأعلام للزركلي 4/ 326، معجم المؤلفين لكحاله 7/ 205.

(2) أخلاق الوزيرين ص 306، ومعجم الأدباء 5/ 1923.

كان يَقْصُد الكُنْيَة مطلقاً دون ارتباطها باسْم الأبناء؟، ومِنَ المَعْرُوف أنَّ اهْتمام التَّوحيدي بالعِلْم والدِّراسة (قَدْ صَرَفَه عن التَّفْكير في الزَّواج وإنْجَاب النَّسْل، فَلَم يُعْرَف عنه أنَّه تَزَوَّج أو رُزِق أولاداً)[1].

وعَدم وُجود نَسْل لأبي حيَّان يَتَّضِح جَلِياً مِن الرِّسالة التي كَتَبَها التَّوحيدي (للقَاضِي أَبِي سَهْل) يَعْتَذِر فيها عن إحْرَاقه لِكُتُبه في أواخر أيامه، وقد نَقَلَها ياقُوت في مُعْجَمه، يقول التَّوحيدي مُوَضِّحاً أسباب ما أَقْدَم عليه، فَيَتَعَلَّل بِعَدَم وُجود أَبْنَاء له يَحْفظون ما كَتَب: (ومِمَّا شَحَذَ العَزْم على ذَلك، وَرَفَعَ الحِجاب عنه، أَنِّي فَقَدْتُ وَلَداً نَجِيباً، وصَدِيقاً حَبيباً)[2].

والكُنْيَة عند العرب - كما يُطْلِعُنا على ذلك القَلْقَشَنْدِي في صُبْحِ الأَعْشَى - هي ما صُدِّرَتْ بِأُمٍّ أو بِأَبٍ، وهو يُطْلِعُنا كذلك على سَبَب شَغَفِ العرب بالكُنَى، فقد كانت تُطْلَقُ من باب التَّعْظِيم والتقدير، والعرب قد اعْتَادوا كذلك عَلَى أنْ تَكُونَ الكُنَى للرِّجال على حَالَين:

الأُولى: أنْ يَكُونَ له وَلَد، وهذا هو الأصل، فَيُكْنَى بِوَلَده سواء أكان ابناً أم ابنة، وهو ما لم يُعْرَف عن التَّوحيدي كما مر بنا.

والحالة الثانية: (أَنْ لا يَكونَ للرَّجلِ ولدٌ، بِأَنْ لَمْ يُولد له وَلَد أَصْلاً، قال النَّوَوِي: فَيَجُوزُ تَكْنِيته حتى الصَّغِير)[3]، ويبدو أنَّ كُنْيَة أبي حيَّان تَنْطَبق عليها الحالة الثانية، وبِصِفة عامَّة فَقَد اتَّفَق الجميع على كُنْيَة أبي حيَّان، وإنْ لَمْ يَعْرفوا لذلك سَبَباً، واتَّفَقُوا كذلك على لَقَبه (التَّوحيدي) وإنْ اخْتَلفُوا في ذلك أَشَد الاختلاف.

**** أما لقبه (التوحيدي)**: فقد اتَّفَق كلُّ من ذَكَر التَّوحيدي، أو تَرْجَم له على هذا اللقب، حيث اشْتُهِر بهذا اللَّقب أَكْثر مِن اشْتِهاره باسْمِه، ولمْ يَثْبُت كذلك في

(1) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء للدكتور زكريا إبراهيم ص 19.

(2) معجم الأدباء 5/ 1930.

(3) صبح الأعشى للقلقشندي 5/ 430 -434.

أيٍّ مِنْ المَصَادر لَقَبٌ آخر كان له مِن الشُّهْرة والذِّيوع، إلا ما كان مِن اسْتِخدام بعض الألقاب العَارضة مِثْل (البَغْدَادي)، إشارة إلى أَنَّه كان نَزيل بَغداد، أو (الصُّوفي)، إشارة إلى مَسْلَكه الصُّوفي وكِتاباته في الصُّوفية، أو (الفَارِسِي) كما نَسَبَه ياقوت في مُعْجَمه بِقوله: (قَرَأْت في كِتاب البَصائر لأبي حيَّان الفَارِسي مِن سَاكِني بَغْداد)[1].

فـ (التَّوْحيدي) كان لَقَب أبي حيَّان الذي عُرِفَ به في حَياته واشْتُهر به بَعد مَماته، إلا أنَّ الذين أرَّخوا وتَرْجموا له لَمْ يَتَّفقوا على سَبَب تَلْقِيبه بهذا اللقب، وانْحَصَرَت دواعي هذا اللَّقب في ثَلاثة أَسْباب، أو بِالأَحْرَى أربعة أسباب، كما وَرَدَ في المصادر القديمة والكتب الحديثة:

والسَّبب الأول: يُرْجِعُ نِسْبَة لَقَبِه التَّوحيدي إلى نَوْع من التَّمْر يُسَمَّى التَّوحيد كان يُباع في العراق، فقد كان أَبُوه يَبيع هذا النوع من التَّمر في بَغداد، كما تقول الروايات، فقد قَال ابن خَلِّكان عن لَقْب التَّوحيدي الذي عُرِف به أبو حيَّان: (ولَمْ أَرَ أحداً مِمَّن وَضَع كُتُب الأَنْساب تَعَرَّض إلى هذه النِّسبة، لا السَّمْعَاني ولا غَيْره، لكن يُقَال إنَّ أَباه كان يَبِيع التَّوحيد ببغداد، وهو نَوْع من التَّمْر بالعراق، وعَليه حَمَلَ بعضُ مَنْ شَرَحَ ديوان المُتَنَبِّي قوله:

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوحِيدِ)[2]

وقال بذلك الزَبِيدِي ت 1205هـ في (تاج العَرُوس): (وأبو حيَّان عَلِي بن مُحَمَّد بن العَبَّاس التَّوحيدي، نِسْبَةً لِنَوع من التَّمر يُقال له التَّوحيد، وقيل هو المُراد من قَوْل المُتَنَبِّي:

هُو عِنْدِي أَحْلَى مِنَ التَّوحِيدِ

وقِيل: أَحْلَى مِن الرَّشْفة الواحدة، وقال ابنُ قَاضِي شُهْبَة، وإنَّما قِيل لأبي

(1) ينظر: سير أعلام النبلاء 12/ 547، وطبقات الشافعية الكبرى 5/ 286، ومعجم الأدباء 1/ 278.
(2) وفيات الأعيان 5/ 113.

حيَّان: التَّوحيدي، لأنَّ أبَاه كان يَبِيع التَّوحيد بِبغداد، وهو نَوْع من التَّمر بالعراق)[1].

فَنِسْبَةُ أبي حيَّان إلى التَّوحيد الذي هو نَوع من أنواع التَّمر، قد حَظِيَتْ بِقَبُول عَدَدٍ من العلماء والمترجمين في القديم كما عند ابن خَلِّكَان، وابن قَاضِي شُهْبَة، والسُّيوطِي والزَّبِيدي، وهي نِسْبة مَقْبولة أَيْضاً عِند عَدَد من الباحثين والدَّارسين المُحْدثين، حيث يرى بَعْضُهم أنَّها (نِسْبَة إلى المِهْنة التي عُرِفَ والده بها، وهي بَيْع نَوْع من التَّمر المُسَمَّى التَّوحيد، وهذا مَقْبُول لدينا كما تَرَون، ولا يَصِح بعد ذلك أنْ يُقَال إِنَّها نِسْبةً إلى عَقيدة التَّوحيد) كما قال بذلك الدكتور عبد الأَمِير الأَعْسم، وبَرَّر ذلك بأنَّ هذه النِسْبة إلى المِهْنة (أَمْرٌ مَنْطقي يُساير طبيعة الانْتساب إلى المِهَن في القَرْنين الثالث والرابع الهِجْريين، ولو كان أبو حيَّان هكذا يُنْتَسب إلى عقيدة التوحيد لَمَا رَأَيْناه يُغْفِل ذِكْره في مَطاوي كُتُبه)[2].

وليس الانتساب إلى المِهن مُقْتَصراً على القرنين الثالث والرابع؛ بل هو سِمَة من سِمات الألقاب في كَثير من عُصور العرب ومُسْتمر حتى وقتنا الراهن، وعلى الرغم منْ أَنَّه لا يُعَاب أحدٌ من انتسابه إلى مِهْنته أو مِهْنة أبيه، إلا أنَّ هذه النِّسْبة - لو صَحَّت - فَهِي تُطْلِعنا على ما كان يُعانيه التَّوحيدي من ضِيقِ العَيْش، ويُعْطِينا مَلْمحاً من حياته البَسِيطة بل والمُعْدَمة التي عاشَها في نَشْأَته الأُولى، وأَثَرُ ذلك على تَكْوين شَخْصيته، وكذلك على نتاجه الأدبي والفكري فيما بعد لكنَّ هذا السَّبب رُغْم واقعيته ومَنْطِقيته إلا أنه يجعلنا نَطْرح عدداً من الأسئلة:

وأَوَّلها: أَلَمْ يكن من الأَوْلى أن يُلَقَّبَ أبو حيَّان بابن التَّوحيدي لِأَنَّ بَيْعَ هذا النوع من التَّمر كانت مِهْنة أَبيه ولم تكن مِهْنته؟، ثم كيف يَقْتَصِر تَاجر التُّمور على نَوْع واحدٍ لا يَتَعَدَّاه، وهناك أنواع أخرى للتَّمر لا تَقِل شُهْرة عن هذا النَّوع المُسَمى

(1) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي 9/ 274.

(2) أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات للدكتور عبد الأمير الأعسم ص 55.

بالتَّوحيد؟، ثم أَلَمْ يَكُنْ غَيْره يَبِيع هذا النَّوع مِن التَّمْر؟، إنَّ هذه التساؤلات وغيرها تُلْقِي بِظلالٍ من الشَّك حول هذه النسبة.

والسبب الثاني: هو نِسْبَة هذا اللَّقب إلى مُصْطلح (التَّوحيد) كما وَرَدَ عند المُعْتَزلة؛ حيث كان يُطْلَقُ عليهم أهل العَدْل والتَّوحيد، وذَكَر السُّيُوطِي ت 911هـ في (بُغْيَة الوُعَاة) هذين السَّببين في تَلْقِيبه بالتَّوحيدي، يقول السُّيوطي إِنَّها: (بالحَاء المُهْملة، نِسْبة إلى نَوْع من التَّمر يُسَمى التَّوحيد، وقال شَيْخ الإسلام ابن حَجَر: يُحْتَمَل أنْ يكونَ إلى التَّوحيد الذي هو الدِّين، فإن المُعْتَزِلة يُسَمُّون أَنْفُسهم أهل العَدْل والتَّوحيد)[1]، وعلى الرغم من أنَّ السُّيوطي قد ذَكَر السَّببين في كِتابه (بُغْيَة الوُعاة) إلا أَنَّه يَمِيل إلى السَّبب الأول، وهذا ما ذَكَره في كتابه (لُبُّ اللُّبابِ في تحرير الأنساب)، يقول: (قلتُ: التَّوحيدي: إلى التَّوحيد نَوْع من التَّمر، وقال ابنُ حَجَر إلى الاعْتِزال لأنهم يَتَسَمَّون أهل العَدْل والتَّوحيد)[2]، وما يُفَنِّد هذا السَّبب الذي افْتَرَضه بعض القُدامى، هو أنَّ التَّوحيدي لم يَكُن أَصْلاً يَنْتَمي إلى المُعتزلة، بل كان يَحْمِل عليهم، ويُفَنِّد كثيراً من آرائهم في كُتُبه، كما سنذكر في سياق هذا التمهيد.

وقد طَرَحَ الدكتور أحمد فَهمي عيسى **سَبَباً ثالثاً** لِنِسْبة التَّوحيدي، وقد اسْتَنْتَجَها من مفهوم الوِحْدة أو الانْعِزال، خاصة وأنَّ التَّوحيدي قد عاش هذه الحالة في أُخْرَيات أيامه، يقول: (رغْم أَنَّنا نستطيع أنْ نَسْتَنْتِج نِسْبة أُخرى، حيث جاء في لِسان العَرَب: يُقال: وَحَدَ فُلانٌ يَوْحَد، أيْ بَقِيَ وَحْده، وفي حديثِ ابن الحَنْظَلِيَّة: وكان رَجُلاً مُتَوَحِّداً أي مُنْفَرداً لا يُخَالط النَّاس ولا يُجَالسهم، وأبو حيَّان اعْتَزَل الناس في آخر حياته، وقَطَع كل ما كان بَيْنَه وبَيْنَهم، فَأَحْرَق كُتُبه، وبَعْدَها انْقَطَعت أخباره، أَتَكُونُ هذه النسبة صحيحة؟)[3]، لكن المُؤكد أنَّ اقتران لَقَب التَّوحيدي

(1) بغية الوعاة للسيوطي 2/ 190.

(2) لب اللباب في تحرير الأنساب للسيوطي ص 55.

(3) تيارات الفكر والأدب والفن في مؤلفات أبي حيان التوحيدي ص 62.

بأبي حيَّان لَمْ يَأْتِ في أُخْريات حياته، ولم يكنْ بِسَبب عُزْلته في أيامه أو سنواته الأخيرة، وما عُرِفَ عن عُزْلة التَّوحيدي وإِحْرَاقه لِكُتُبِه، كان في أخريات حياته، وهو قد اشْتُهِر بِلَقب التَّوحيدي قبل ذلك بكثير، إضافة إلى أنَّ اللغة لا تُسِيغ هذه النِّسبة لأنَّ ما وَرَدَ في لِسان العَرب[1] لم يَذْكُر التَّوحيد بل التَّوَحد وأنَّ فُلاناً مُتَوَحِّداً أيْ مُنْعَزلاً، فَلَو صَحَّت النِّسبة لكان لَقَبُه التَّوَحُّدِي أو المُتَوَحِّدي.

عَلَى أنَّ شَمْس الدِّين الذَّهَبِي ت 748هـ ذَكَرَ **سَبَباً رابعاً** لتلقيب التَّوحيدي بهذا اللقب، جازماً بأنَّ التَّوحيدي هو مَنْ لَقَّبَ نَفْسه بهذا اللقب، يقول: (وأبو حيَّان هو الذي نَسَبَ نَفْسَه إلى التَّوحيد، كما سَمَّى ابن تُومَرت أَتْباعه، فقال: المُوَحِّدِين، وكما سَمَّى صُوفِية الفَلاسفة نُفُوسهم بِأَهْل الوِحْدة وأَهْل الاتِّحاد)[2]، وهذه النِّسبة إلى ذلك المَفْهوم العَقَدي والفلسفي والصُّوفي هو الرَّاجح بل المُؤَكَّد الذي تَنْهَض عَلَى إثباته دلائل كثيرة، خاصة وأنَّ حيَّاة التَّوحيدي - منذ وَقْتٍ مُبَكر - قد دارت في فَلَك هذه الدَّوائر (العَقِيدة والفَلْسفة والصُّوفية)، إضافة إلى دَوائر اللُّغة والأدب والبيان والنَّقد كما سنرى.

فهذه الفَرَضية قد وجدنا لها في كتابات التَّوحيدي الكثير مما يُؤَيِّدها أو يُعَزِّزها، خاصة وأن كلمة (التَّوحيد) لم تَكُن حِكْراً على المُعْتزلة وَحْدهم، بل هي مُفْرَدة مُسْتَخدمة في أُمْور العَقِيدة، وفي عُلوم الكلام، حتى أنَّ هناك عِلْماً قائماً بذاته يُسَمَّى (عِلْم التَّوحيد)، وقد وَرَدَت كلمة التَّوحيد كثيراً في كُتُب التوحيدي المختلفة، منها ما ذَكَرَه في كتابه (الإشارات الإلهية)، حيث يقول: (يا هَذا: عُدْ بِنا إلى مَتْنِ التَّوحيد، وإلى عُمْق المعرفة....، فإذا سَلِمَتْ هذه العِبارة، فَتَعَال حتى نَقُول: مَتْنُ التَّوحيد مُشَاهدةُ الوَاحد بالضَّمِير المُعْتَقِد عَلَى مُبَايَنة كلِّ ما سِواه)[3]، وهذا الذي ذَكَره أبو حيَّان عن التَّوحيد، هو ما يَتَرَدَّد في بيئات الفلاسفة والصوفية

(1) لسان العرب 3/ 449.

(2) تاريخ الإسلام للذهبي 8/ 837.

(3) الإشارات الإلهية للتوحيدي تحقيق الدكتورة وداد القاضي ص 107.

خاصة متصوفة الفلاسفة، وقد تَكَرَّر مُصْطلح التَّوحيد كَثيراً في كِتابه الإِشارات الإلهية وكُتُبه الأخرى.

ويُصَرِّحُ التَّوحيدي تَصْريحاً وَاضِحاً ومُباشراً بِأَنَّ فَهْمَهُ وإيمانه بالتَّوحيد هو فَهْمُ الفلاسفة، واعْتَبَر أنَّ التَّوحيد هو غايةُ الفَلسفة في كل مَباحثها وقَضاياها، يقول رَابِطاً التَّوحيد بالفلسفة: (وإلى التَّوحيد تَنْتَهِي الفَلْسفة بِأَجْزَائها الكَثيرة، وأَبْوابها المُخْتَلفة، وطُرُقِها المُتَشَعِّبة)[1]، ويؤكد أنَّ التَّوحيد في الفَلسفة أَكْثر صَفاء ووُضُوحاً، حيث يَتَحَدث عن (سَبَب عَدَم صَفاء التَّوحيد في الشَّريعة مِن شَوائِب الظُّنون)، فيقول: (قُلتُ لأبي سُلَيمان يوماً: لِمَ لَمْ يَصْفُ التَّوحيد في الشَّريعة من شَوائِب الظُّنون وأَمْثِلة الأَلفاظ، كَمَا صَفَا ذلك في الفلسفة؟).

ثم يَضَعُ تعريفاً للتَّوحيد يُفَرِّق فيه بين توحيد العامَّة وتوحيد الخاصَّة، فيقول: (قِيل: فَما التَّوحيد؟، قال: اعْتِرَاف النَّفْس بالوَاحد لِوُجْدَانها إيَّاهُ وَاحِداً مِنْ حيثُ هُو وَاحِدٌ، لا مِن حَيثُ قِيلَ إنَّه وَاحِد، وهذا هو الحَدُّ بَيْن تَوْحِيد الجُمْهور بالتَّقْلِيد، وبَيْن تَوحيد الخَاصة بالتَّحْقِيق)[2]، فالتَّوحيدي في كلِّ ما سَبَق يُؤكد أنه يُؤْمِن بالتَّوحيد على ما يَقُول به المُتَفَلسفة من الصُّوفية، لا عَلَى ما يقوله عُلماء الكلام ومنهم المُعْتَزلة، وهذا يَنْفِي ما تَرَدَّد من نِسْبة لَقَبِه (التَّوحيدي) إلى الفِكْر الاعْتِزالي، وذلك واضح أيضاً مِنْ رَفْضِه لِفَهْم عُلماء الكَلام لِمَدْلول التَّوحيد في عِبارة كَاشفة ودَامِغة، فهو يُبْعِدُ المَعْنى الحَقيقي للتَّوحيد عمَّا يقوله علماء الكلام، يقول: (وإنَّما البَلاءُ كلُّه مِن أصحاب الكَلام، الذين يَظُنُّون أنَّ التَّوحيد لا يَصِحُّ إلا بِنَظَرِهم، والدِّينُ لا يَثْبُتُ إلاَّ بِنُصْرَتهم، والحقُّ لا يُعْرَف إلاَّ بِمَقَاييسهم، وهُم عَن أسرار التَّوحيد فِي أَبْعَد مَطْرَحٍ وَأَنْأَى مَنْزَح، واللهُ تَعالى أَجَلُّ مِن أنْ يُصَحِّحَ تَوحيدَهُ عقولُ خَلْقِه، ومَقايِيس عِباده، وظُنون العَاجزين عن الحَقَائق، وآرَاء المَضْرُوبين بالنَّقْص)[3].

(1) الإمتاع والمؤانسة 3/ 135.

(2) المقابسات ص 257، ص 365.

(3) البصائر والذخائر 8/ 138.

وهنا نتساءل بِشَيءٍ من الدَّهشة، كيف قَبِلَ كَثيرٌ من الذين تَرْجَموا للتَّوحيدي في القديم والحديث نِسْبَةَ لَقَبِهِ إلى فِكْرِ المعتزلة أو علماء الكلام، واعْتَبَرها البعض مُسَلَّمة من المُسَلَّمات، بَعْدَ كلِّ هذه النُّصوص الوَاضحة من كِتابات التَّوحيدي نَفْسه، التي تَرْفُض مَفْهوم التَّوحيد عِند المُعْتَزلة وعلماء الكلام جُمْلة؟!!، وهذا سَيَدْفعنا لمناقشة قضية انْتِماء التَّوحيدي للمُعْتزلة التي شَاعَت في كَثِير من المؤلفات القديمة والدراسات الحديثة على السواء.

***** هل كان التوحيدي معتزلياً؟!**

ويبدو أنَّ نِسْبة لقب التَّوحيدي إلى المُعتزلة وإلى بَعْض مبادئهم قد انْتَشَرت أَكْثر من نِسْبة لَقَبه إلى الفِكْر الفَلْسفي الصُّوفي كما أقَرَّ بذلك التَّوحيدي نَفْسه فيما مَرَّ بنا من نُصُوصه، فهل كان التَّوحيدي مُعْتَزلياً حقاً حتى يُطْلَق عليه هذا اللقب؟، من الواضح أنَّ ابن حَجَر - كما مَرَّ بنا - لم يُؤْكد هذه النِسْبة وَوَضَعها في دائرة الاحتمالات بقوله (يُحْتَمل) فيما رواه عنه السيوطي، لكنَّ نِسبة التَّوحيدي إلى المُعْتَزلة قد وَرَدَت في الكثير من كُتُب التَّراجم القديمة، ولَيْس عند ابن حَجَر وَحْدَه، وجاءت بصِيغَة الجَزْم وليس بصيغة الاحتمال، حيث ذَكَر ياقوت نِسْبة التَّوحيدي إلى المعتزلة جازماً ومؤكداً ذلك، فقال عن التوحيدي أنه (كان مُتَفَنِّناً في جميع العُلوم، من النَّحو، واللُّغة، والشِّعر، والأدب، والفِقه، والكلام على رَأْي المُعْتَزلة)[1].

وربما تكون عبارة ياقوت الجَازمة هي التي أَزالت الحَرَج عند الكَثير مِمَّن نَسَبوا أبا حيَّان إلى المُعْتزلة، ونَسَبوا لَقَبه إلى التَّوحيد الذي هو أَحَد مُقَوِّمات الفِكر المُعْتزلي، ولعل مِن الأسباب أيضاً في افتراض هذه النِّسبة إلى التَّوحيد المعتزلي غير ما ذَكَرَه ياقوت وابن حَجَر، هو تَتَلْمُذ التَّوحيدي على يد بَعْض علماء المعتزلة مِن أمثال (عَلِي بن عِيسى الرُّمَّاني ت 384هـ)، و(أبي سَعِيد السَّيرافِي ت 368هـ)، و(أبي عُبَيْد الله المَرْزُباني ت 384هـ)، وقد كانوا جميعاً من عُلماء المعتزلة،

(1) معجم الأدباء 5/ 1923، وينظر: الوافي بالوفيات للصفدي 22/ 27 - 28.

ويُضافُ إلى ذلك شَغَف التَّوحيدي وإعجابه بالجَاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر ت 255هـ)، وقد كان كما هو مَعروف عَلَماً من أعلام المعتزلة، بل كانت له فِرْقة مُعْتَزلية سُمِّيت باسْمِه.

فهذه قدْ تَكونُ بعض المُبَرِّرات التي سَوَّغَت للبعض نِسبة التَّوحيدي إلى الفِكر الاعتزالي عامة، ونِسْبة لَقَبه إلى أَحَد مُقومات هذا الفكر، لكنَّ المُؤَكد أن هذه النِسبة إلى التَّوحيد المُعْتزلي وذلك الانْتِماء إلى المُعْتزلة أصبح مَوْضِع شَكٍّ لدى عدد من الباحثين والدارسين المُحْدَثين، بل أصبحت نِسْبة التوحيدي إلى عِلْم الكلام جُمْلة مَوْضع شَك كذلك، وليس إلى الفِكر الاعتزالي فَحَسْب، فالمُتَتبع لكتابات التَّوحيدي سَيَجِد أنَّه (لَمْ يَكُنْ يَنْتَمي إلى طائفة عُلماء الكلام، بل كان كَثير النَّعْي عليهم، دائم الاسْتِهْزَاء بهم، والحَطِّ من شَأْنِهم، ومُهَاجمة طَرِيقتهم في البَحْث والاستدلال)[1]، وأَنَّه (كان على عَدَاء شديد مع المُعتزلة)[2]، وخلاصة الأَمْر أَنَّه (لَمْ يَكُن مُعْتزلياً، بل كان خَصْماً من خُصُوم عِلْم الكلام)[3].

وعَلَى الرُّغْم من هذا الإِجْماع في الدِّراساتِ الحَديثةِ في اعْتِبار التَّوحيدي خَارجاً عن دَائِرة عُلماء الكَلام أو عُلَماء المُعْتزلة تحديداً، وَجَدنا مَنْ يُؤَكِّد ويُرَدِّد انْتِماء التَّوحيدي للمُعْتزلة، ومن هؤلاء الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي في تَقْدِيمه لِكِتاب (مَعَاني الحُروف) لعَلِي بن عِيسى الرُّمَّاني، حيث كان يُحْصِي تلاميذ الرُّمَّاني، وجَعَل مِن أوائلهم أبا حيَّان التَّوحيدي، ثُمَّ وَصَفَه بالمُتَصَوِّف المُعْتَزِلي[4]، والقول بأنَّ التَّوحيدي كان مِنْ تَلاميذ عَلِي ابن عِيسى الرُّمَّاني أو بأنَّه كان مُتَصَوِّفاً فَصَحِيحٌ لا شك فيه، لكنَّ وَصْف التَّوحيدي بالمُعْتَزلي يُجَانِبه الصَّواب، وربما ما جَعَل الدكتور شلبي يَذْهَب إلى ذلك هو اعْتِزال عَلِي بن عِيسى الرُّمَّاني ذاته الذي

(1) مقدمة تحقيق الهوامل والشوامل ص 13 وينظر: المقابسة رقم 48 من كتاب المقابسات وقد حمل فيه حملة كبيرة على المتكلمين ومناهجهم وطرقهم ص 223.

(2) تيارات الفكر والأدب والفن في مؤلفات أبي حيان التوحيدي ص 61.

(3) فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي للدكتور حسين صديق ص 66.

(4) ينظر: مقدمة تحقيق معاني الحروف للرماني للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ص 14.

تَتَلْمَذ عليه التَّوحيدي، ومن هؤلاء الذين وَصَفُوا التَّوحيدي بالاعْتِزال: الدكتور إبراهيم الكيلاني في مُقَدِّمة تَحْقِيقه لثلاث رَسَائل للتَّوحيدي، حيث يقول: (ولَمْ يَفُتْ التَّوحيدي ومَوْقِفه كَمُعْتَزِلي مِنَ الإمامة والتَّشَيُّع مَعْروفة..)[1]، وعلى الرُّغم من رِيادة الدكتور إبراهيم الكيلاني في الدِّراسات التَّوحيدية، واشْتِغَاله الدَّؤوب بِدِراسة التَّوحيدي وتَحْقِيق بَعض كُتُبه ورسائله، إلا أَنَّه قد جَانَبَه الصَّواب في نِسْبة التَّوحيدي إلى المُعْتزلة.

فَبِالنَّظر إلى ما كَتَبَه التَّوحيدي نَفْسُه فيما يَتَعَلَّق بِعِلْم الكَلام ومَسائل العقيدة وغَيرها في أكثرِ كُتُبه، سَنَجِد أنَّه قَد خَالف عُلماء الكَلام عَامَّة بِوُضُوح في أَكْثر من مَوْضع، فهو لَمْ يكن من المُتَكَلِّمين وإنْ عَرَف طَرِيقتهم، بل رَأَيْناه يَشُدُّ عليهم النَّكِير في مواضع مختلفة من كُتُبه، منها قوله بعد أن أَوْرَد مُنَاظراتٍ لبعض المُتَكَلمين ممن تَجَرَّءوا في الكلام على الله، يقول: (والسُخْفُ والجُرْأَة وسُوءُ الأدب، وإطْلاق اللِّسان بما لا يَجُوز دِيناً ومُرُوَّة غالبةٌ على أصحابِ الكلام، والتُّقَى والرَّهْبة والوَرَع بَعِيدةٌ من هذه الطَّبَقة)[2]، ولكنَّ نَقْدَه لِبَعْض عُلماءِ الكلام لَمْ يَمْنَعه مِن إنْصَاف هَذا العِلْم، فَقَد تَكَلَّم بِمَوْضُوعية عن عِلْم الكلام نَفْسِه في رِسالته في العُلُوم[3]، ولمْ يَأْتِ في هذه الرسالة على ذِكْر علماء الكلام لا بِمَدْحٍ ولا بِذَمٍّ، وكأنَّه أراد فَحَسْب التَّنْبِيه على أَهَمِّية وقِيمة وأَثَر عِلْم الكلام، فهو لا يُنْكر أهمية هذا العلم، وإنْ كانَ يُنْكِر على بَعْضِ علماء الكلام انْحِرافاتهم، وحَمَلَ على المُعْتَزلة كذلك وانْتَقَدَهم في مَواضعَ مُختلفة، وأَوْرَد من الأقوال التي تَعِيبهم، بل وصَرَّح تَصْريحاً واضحاً لا مُوَاربة فيه ولا كِناية، وفيه يَذِمُّ المعتزلة في عَصْره، حتى وَصَفَهم بالتَّعَلُّق بأسباب الفِسْق والهَتْك، فيقول: (وأَرَى المُعْتزلة في دَهْرِنا يَتَسارعون إلى التَّكْفِير كَتَسَارع الوِرْدِ إلى المَنْهَل، وما أَدْرِي ما يَبْعَثُهم على ذلك إلا

(1) مقدمة تحقيق ثلاثة رسائل لأبي حيان التوحيدي للدكتور إبراهيم الكيلاني ص 8.

(2) أخلاق الوزيرين ص 231.

(3) ينظر: رسالة في العلوم ضمن (رسالتان للتوحيدي) ص 212.

سُوءُ الرَّعَةِ، وقِلَّة المُراقبة، وأَكْثَرهم قَذْفاً لِخَصْمه بالتَّكفير أَعْلَقُهُمْ بأسباب الفِسْق والهَتْك، والله تعالى لهم، ولِكُلٍّ من سَلَك سَبِيلهم)[1].

والتَّوحيدي يَحْمِل على الصَّاحب بن عبَّاد الذي كان مُعْتزلياً، ويُشير إلى ما كان يَدْعو إليه المَذْهب المُعْتزلي من (العَدْل والتَّوحيد) وتَناقض سُلُوك ابن عبَّاد مع هذا المبدأ، يقول التوحيدي: (وكان مع هذا المَذْهب الذي يُدِلُّ به ويُسَمِّيه: العَدْل والتَّوحيد، قَلِيلُ التَّوجُّه إلى القِبْلة، قَليل الرُّكوع والسُّجود، وكان مع حِفْظِه الغَزير، عليه مَؤُونَةٌ في تِلاوةِ آيةٍ من كتابِ اللهِ ﷻ، إذا أَرادَ أنْ يَسْتَدِلَّ بها في المُنَاظرة والجَدَل، أو يَذْكر وَجْهاً من وُجُوهِها في المُذَاكرة)[2]، وهذه العِبارة من التَّوحيدي أَيْضاً فيها دِلالة عَلَى تَفْنِيد نِسْبَة لَقَب التَّوحيدي إلى مَبْدَأ العَدْل والتَّوحيد عند المعتزلة، فلو كان ذلك صَحيحاً لأَشار إليه هنا، أو بَيَّن ارتباطه بهذا المبدأ المعتزلي.

فالتَّوحيدي لم يكنْ مُعْتزلياً، ولم يكنْ من علماء الكلام، وهذا يَظْهَر بِوضوح من اسْتِقْراء كُتُبه وتَتَبُّع آرائه، فلَيْس فيما كَتَبه التَّوحيدي أيُّ أَثَر للفِكر المُعتزلي، كما هو عِند غَيْره ممن عُرِفوا بانتمائهم للمعتزلة، أو غير المُنْتَمين مِمَّن عُرِفوا بِدفاعهم عن الفِكر المُعْتزلي، ولهذا لم يكنْ ثَمَّة رَابط بَيْن لَقَب التَّوحيدي وبين المُعْتزلة من قَرِيب أو بَعيد، فضلاً عن أنَّ عُلماء المعتزلة كُثُرٌ منذ أنْ بَدَأَ هذا المذهب الكَلامي، ولم نَرَ أحدَهم قد لُقِّبَ بهذا اللَّقب أو بِمِثْله، وأَكْثَرُهم قد أَفَاد المَذْهب وكَتَبَ فيه الكثير من المؤلفات.

لقد كان من الضَّروري الوُقوف على حَقيقة نِسْبة لَقَبه، وحَسْم ما قِيل حَوْل اعْتِزاله، إذْ لَوْ صَحَّت هذه النِسْبة وذلك الانتماء، لكان ذلك مُكَوِّناً - أَعْنِي الفِكر الاعتزالي - مِن مُكَوِّنات ثَقَافته، وأثر على اتجاهاته الأدبية والنقدية كَمَا رَأَيْنا عند كثيرٍ مِمَّن سَبَقوه أو لحقوه من العلماء والكتاب والأدباء الذين انْتَمُوا إلى المُعْتزلة

(1) البصائر والذخائر 4/ 216.

(2) أخلاق الوزيرين ص 118.

مثل: الجَاحِظ ت 255هـ، أو عَلِي بن عيسى الرُّمَّاني ت 384هـ، أو القاضي عبد الجَبَّار ت 414هـ، أو الزَّمَخْشَري ت 538هـ، وغير هؤلاء الكثير ممن أَثَّر هذا الانتماءُ على ما كَتَبُوه وما أذاعوه بين الناس.

***** ثانياً: أصله ومولده ووفاته:**

وقد ظَهَر الخِلاف مُبَكراً حول أَصْله لدى مَن تَرْجموا له أو تَحَدثوا عنه، في أنْ يكون التَّوحيدي عربيَ الأصلِ أو فارسياً، فقد وَرَدَت إشارات لدى بعض القدامى، مثل ياقوت تُشِير إلى فارسيته، حيث يقول ياقوت: (قَرَأتُ في كتاب البَصائر لأَبِي حيَّان الفَارِسي من سَاكِني بغداد...)، ويَصِفُه ياقوت مَرَّة أُخْرى بأَنَّه (عُمْدَة لِبَنِي سَاسَان)، وحتى الذين سَلَّموا بِفارسيته اخْتَلَفوا في نِسْبَته إلى مدينة مُحَدَّدة، فقد ذكر ياقوت أنَّ التَّوحيدي (شِيرَازي الأَصْل وقِيل نَيْسَابُوري، وَوَجَدْتُ بعض الفُضلاء يقول له الوَاسِطي)[1]، وتَابَعَه السُّبْكِي في (طَبَقات الشَّافعية الكبرى) في عَدَم تَحديد مَحَل نَشْأَته[2].

ومن المُحْدَثِين من أَكَّدَ على أَصْلِه الفَارسي، يقول حسن السَّنْدوبي مُحَقِّق كتاب المُقَابسات: (اخْتَلف المؤرخون في أَصْلِه بين أَنَّه شِيرازي أو نَيْسَابوري أو واسِطي، ومهما يَكُن مِن خِلافٍ فَلا شَكَّ أَنَّه فَارسيُّ الأَصْل، وإلا سَكَتُوا عن التَّعريف بِأَصْلِه)[3]، ويبدو أنَّ تأكيد السندوبي على فارِسِيَّة أَصْل التَّوحيدي يَعُود إلى ما ذكره ياقوت فيما سَبق، إذْ لَمْ يَذْكر السندوبي ما يُعَزِّز أو يُدَلِّل هذا الافتراض، وجَزَم كذلك الدكتور زكي مبارك بفارِسِية التوحيدي، عندما قال: (لا تَسْأَل مَتَى وُلِد، ولا أَيْنَ وُلِد، فذلك رَجُل نَشَأ في بيئة خاملة، لم تكن تَطْمَع في مَجْدٍ حتى تُقَيِّد تاريخ مِيلاد، ويَكْفِي أنْ تَعْرِف أَنَّه فَارِسي الأصل)[4].

(1) معجم الأدباء 1/ 278، 5/ 1924.

(2) معجم الأدباء 5/ 1923 وطبقات الشافعية الكبرى 5/ 286 وبغية الوعاة للسيوطي 2/ 190.

(3) مقدمة السندوبي لكتاب المقابسات ص 8.

(4) النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك 2/ 133.

والدكتور عبد الرحمن بدوي أيضاً مِمَّنْ جَزَموا بفارسية أَصْل التَّوحيدي، بل ذَهب إلى تأثير ذلك الأصل على شخصية التَّوحيدي وما أَصَابها منْ حِقْد تِجاه العناصر الأخرى، حيث ذَكَر في مُقَدَّمة تحقيقه لكتاب (الإشارات الإلهية) للتوحيدي: (وصَاحِبُنا لا نَعْرِف له أصلاً، إنَّما هو من أُولَئِك المَوالي الذين اخْتَلَطَت فيهم الدِّماء والعَناصر، فَكَوَّنَت مُرَكَّباً غريباً..، على أنَّ الأَرْجَح أنْ يكونَ فارِسِيَ الأَصْل..، ولا شَكَّ أنَّه كان يَشْعر بالذَّحْل العُنْصري - أي الحِقْد - الذي كان بَالغاً أَشُدَّه في عَهْدِه، أَعْنِي القرن الرابع..، ومِنْ هُنا كانت عِنَايته.. بِأَمْرِ الشُّعُوبِيَّة، وما ذَلك إلا لِمَا يُعَانيه من تَجْربة أوْ شُعُورٍ أَلِيم يَبْلُغُ حَدَّ المأساة، لأنه شُعُور عُنْصر بِأَسْرِه في كفاحٍ حضاريٍّ مع عَناصر قَوية أُخْرى كانت لها عَليه مَكانة السِّيادة)[1].

وعلى الرغم من أنَّ الدكتور عبد الرحمن بدوي يَفْتَرِض أو يُرَجِّح فارسية أَصْل التَّوحيدي، إلا أَنَّه لم يَأْتِ بالدَّلِيل عَليها، بل رَاحَ يُرَتِّب الأحكام تِلْو الأَحْكام على هذه الفَرَضية وذلك التَّرجيح الذي لا يُسَانِده دليلٌ ولا إثبات، وحديثُهُ عن أَمْر شُعُوبية التَّوحيدي يَدْعو للعَجَب والدَّهشة، إذْ لَمْ يَثْبُت في أيٍّ مما كَتَبَه التَّوحيدي أنه كان مع الشُّعُوبية أو ذَكَر ما يَعِيب العرب، أو أَنَّه أَحَسَّ بذلك الذَّحْل العُنْصِري - كما ذَكَر الدكتور - تِجَاه العَرب، بل إنَّ العَكْس هو الذي ثَبَتَ، حيث انْبَرَى التَّوحيدي في أَكْثَر من مَوْضع من كُتُبه - كما سَنَرى - يُنَافِح ويُدافع عن العَرب في مُواجهة الشُّعُوبية!!

والمُتَأَمِّل لكثيرٍ مما كَتَب التَّوحيدي فيما يَخُص الأُمَم والشُّعوب سَيَذْهَب إلى أَنَّه عَرَبي الأَصْل والنَّسَب، صَحِيح أَنَّه سَكَتَ عن الحَديث عن أَصْلِه، لكن رُبَّما (كان يَرَى نَفْسَه عَربياً، فلا يَحْتَاج إلى أنْ يَتَشَدَّد على ما هو واقع، بانْحِدَاره من عائلة عَرَبِيَّة فَقِيرة امْتَهَن رَبُّها بَيْعَ التَّمْر العِرَاقي العَربي، وتِلك مِهْنة لَمْ يَأْلَفْها الفُرْس)[2]، ولهذا مَالَ بعض الباحثين إلى نَفْيِ فارسية التَّوحيدي وإثْبات عَرَبِيَّته،

(1) مقدمة تحقيق (الإشارات الإلهية للتوحيدي) للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ج.

(2) أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات للدكتور عبد الأمير الأعسم ص 56.

ليس ذلك فَحَسْب بَلْ نِسْبَته إلى إحدى القبائل العَربية، وهي قَبيلة الأَزْدِ اليَمَانِيَّة[1].

ونَفْيُ نِسْبة التَّوحيدي إلى الفارسية لا تُقَلِّل من شَأْن أَعْلام الثَّقافة والفِكْر والأَدَب العَربي مِمَّن يَنْحَدِرون مِن أُصُول غير عَرَبية، فَارسية أو غَيْر فارسية، وهؤلاء كُثُرٌ في قائمة عُلَماء الحضارة الإسلامية، لكنَّ الحَقِيقة التي يَجِبُ أنْ نُثْبِتها، والتي تُؤَكِّدها الدَّلائل هي أنَّ التَّوحيدي لَمْ يَكُنْ فارسياً، ومن هذه الدَّلائل على عربية التَّوحيدي وعَدَم فارسيته هو أنَّ المصادر القديمة والحديثة تؤكد على السواء أنه لَمْ يَكُنْ يَعْرِف الفارسية طُوال حياته.

وقَدْ وَرَدَتْ إشاراتٌ عَدِيدة في كُتُبِه ورَسَائله تُوَضِّح أنه لم يكن يَعْرف الفارسية، إذْ لو كان مِن أَصْل فارسي لكان لُقِّن الفارسية في صِغَره وعَرَفها، ومن هذه الإشارات ما ذَكَرَه في أَوَّل لِقَائه بابن العميد ت 366هـ، وما دار بَيْنَهما من حِوار، وكيف أنَّ ابن العميد قد غَضِب مِنْه وتَلَفَّظ بِكلام فارسي لَمْ يَفْهَمْه التَّوحيدي، واحْتَاج إلى مَنْ يُفَسِّره له، يقول التَّوحيدي: (قال: فَقُلْ لِي، أبو حيَّان يَنْصَرِفُ أَوْ لاَ؟، قُلتُ: إنْ قَبِلَهُ مَوْلانا لا يَنْصَرف، فَلَمَّا سَمِع هذا تَنَمَّرَ وكأنَّه لم يُعْجِبْه، وأَقْبَل على وَاحدٍ إلى جَانِبه، فَقَال له بالفَارسية: سَفْهاً، عَلَى ما فُسِّر لي)[2]، فَلَوْ كان التَّوحيدي فارسياً - حَتَّى وَلَوْ لَمْ يكن يَتَكَلَّم الفارسية بِطَلاقة - لَسَمِع مِثْل هذه الكلمة البسيطة من آبَائه أو أَجْداده، وَلَعَرَف معناها دون أن يَحْتَاج لِمَنْ يُفَسِّرها له.

ثم هناك دليلٌ آخر، وهو عدم إشارة التَّوحيدي إلى أنَّ أَصْلَه فارسيٌّ في مَواضع كان يَتَحَتَّم عليه أنْ يُشِير إلى ذلك، فَقَد سَأَلَه الوزير ابن العارض ت 375 هـ: (أَتُفَضِّلُ العَرَبَ على العَجَم، أم العَجَم على العَرَب؟..)، ثُمَّ بَدَأ يُجِيبه التَّوحيدي ويُقَسِّمُ الأُمَم إلى أَرْبع، ويقول: (قُلْتُ: الأُمَم عِند العُلَماء أَرْبع: الرُّوم،

(1) مقدمة تحقيق الرسالة البغدادية للتوحيدي، لعبود الشالجي ص 15.

(2) أخلاق الوزيرين ص 306.

والعَرَب، وفَارس، والهِنْد، وثَلاثٌ من هؤلاء عَجَم..)[1]، فلو كان التَّوحيدي ذا أَصْلٍ فَارسي لَأشَار الوَزير إلى ذَلك، أو أشار التَّوحيدي نَفْسُه في إجابته، وقد صَدَّرَ التَّوحيدي رِسالته في العُلُوم بِحَديث مُوَجَّهٍ لِأَهْلِ فارس مُبَيِّناً بِشَكْل واضح لا يَقْبَل اللَّبس أنَّه غَرِيب عَنْهم، يقول: (أَطَال اللهُ بَقَاءَكم، وَأَدَام كَرَامَتَكم، وحَرَسَ نِعَمَهُ عليكم....، وجَعَلَ حَظَّ الغَرِيب السَّلَامة بَيْنَكم...، فإِنِّي لَمْ أَرِدْ بَلادَكم من العِراق مُبَاهِياً لكم)، وقال في نَفْس الرِّسالة موضحاً انتمائه للعرب: (ولابُدَّ لنا مَادُمْنا تَبعاً لهذه الأُمَّة أَعْنِي العَرَب، مِنَ الاقْتِداء بِهِم، والاقْتِفَاء لآثَارِهم مِنْ غَيْر تَحْرِيف ولا تَجْزِيف)[2].

وهناك دَليلٌ واضحٌ آخر، وهو دِفاع التَّوحيدي بِقُوَّة عن العرب في مُوَاجهة الشُّعُوبية، وقد بَلَغَ ما قال التَّوحيدي في الدِّفاع عن العرب في مواجهة الشعوبية صَفَحات طويلة من كتابه (الإمْتاع والمُؤانسة)، رَدَّ فيها على الجَيْهَاني الفَارسي الذي ذَمَّ العَرَب، وقَلَّلَ من شَأْنِهم، يقول التَّوحيدي: (وَأَعْجَب أيضاً فَضْلَ عَجَبٍ مِن الجَيْهَاني في كِتابه، وهو يَسُبُّ العَرَب، ويَتَنَاول أَعْراضها، ويَحُطُّ من أَقْدَارها)[3]، ولم يكنْ التَّوحيدي يُدافع فَحَسْب عن العرب، بل انْتَقَص مِن شَأْن الفُرْس، وذَمَّهم وأَوْرَد من الأَقْوال ما تَذْكر مَخَازِيهم وَمَسَاوئهم، فلا يُعْقَلُ أنْ يُورِد التَّوحيدي ما يَجْلِبُ الذَّم على الفرس لو كان فارسياً، وهنا نؤكد أنَّ التَّوحيدي كان يَقْتَفي أَثَر مَن سَبَقه في الرَدِّ على الشُّعُوبية مِثل الجاحظ وابن قتيبة، وكان يُدافع بِصِدْق عَن أَصْله العَربي في مواجهة مَنْ يَتَطاول على العُروبة والعرب من الشُّعوبية خاصة من الفرس، وهذا ما نَعْتقده بل ونَجْزم به بُناء على ما سَبَق من دلائل.

أما تاريخ مولده: فهو من القضايا الجَدَلية التي أَتْعَبَت من أَرَّخ للتَّوحيدي أو

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 70 وما بعدها.

(2) رسالة في العلوم، ضمن (رسالتان لأبي حيان التوحيدي) طبعهما أحمد فارس الشدياق ص 200، 204.

(3) الإمتاع والمؤانسة 1/ 78 – 79 وما بعدها.

تَرْجَم له، فقد خَضَع تَحْديد هذا التاريخ للاسْتِنْتاجات وحِسابات السِّنين منْ أقوال التوحيدي في كُتُبه أو أقوال غَيْره عَنه، أَكْثَر مِمَّا خَضَع لِرواياتٍ أو أَخْبار مُؤَكِّدة على تاريخ مولده، فقد اسْتَدَلَّ السَّندوبي مُحَقِّق كتاب (المُقَابسات) على تَاريخ مَولد التَّوحيدي مِن كَلِمة ذَكَرها التَّوحيدي نفسه في رسالته التي كَتَبَها للقاضي أَبِي سَهْل للاعْتِذار عَن إحراق كُتُبه، وهي الرسالة التي رَواها ياقوت وذَكَرها في مُعْجَمه، ويقول فيها التَّوحيدي: (وبَعْدُ فَقَدْ أَصْبَحتُ هَامَةَ اليوم أو غَد، فإِنِّي في عَشْر التِّسْعين، وهلْ لِي بَعْد الكِبْرة والعَجْز أَمَلٌ في حَيَاة لَذيذة، أوْ رَجَاء لِحَال جَديدة؟)[1]، وقد كُتِبَتْ هذه الرسالة عام 400هـ، وهو في عَشْر التِّسْعين، أي في العَشْرة التَّاسعة عِنْدما كَتَبَها، أيْ أنَّ عُمْرَه عند كتابةِ الرِّسالة قد جَاوزَ الخَامسة والثَّمانين.

والسَّنْدوبي قد طَرَح هذا الرَّقم من عام 400هـ مما جَعَلَه يَسْتَنْتج أنَّ مَوْلده كان عام 312هـ، يقول السَّندوبي: (يَتَعَيَّن أنَّ ميلاده كان في العَشْرة الثانية بعد الثلثمائة، وعليه حقَّ لنا أنْ نَقول: وُلِدَ أبو حيَّان التَّوحيدي في بغداد سنة 312، وبها نَشَأ)[2]، وهذه الطَّريقةُ التي اتَّبَعها السَّندوبي هي طَرِيقةٌ مَنْطِقية وعقلانية، لكنَّ نتائجها لَيْسَت مُلْزِمة بهذا الشَّكل المُؤَكَّد، فَيُحْتَمل أنْ يَزِيد عام مَوْلده عن هذا أو يَنْقُص، ولهذا ذَهَب الدُّكتور زكريا إبراهيم إلى أنَّ التَّوحيدي وُلِد عام 310هـ، وَأَعْفى الدكتور زكي مبارك نَفْسه من مُهِمَّة البَحْث عن تاريخ مولده، ولم يُرَجِّحْ الدكتور الحُوفي تَاريخاً مُحَدَّداً، وإنْ اكْتَفَى باسْتِعراض ما قَالَه السَّابقون عليه في تَحْدِيد تاريخ مَوْلد التَّوحيدي، وطَرَح الدكتور أحمد فهمي عيسى تَاريخاً تَقْرِيبِيَّاً ما بَيْن عامي 322هـ و325 هـ[3].

(1) معجم الأدباء 5/ 1930.

(2) مقدمة السندوبي للمقابسات ص 8.

(3) ينظر: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء للدكتور زكريا إبراهيم ص 15، ينظر: النثر الفني في القرن الرابع للدكتور زكي مبارك 2/ 133، ينظر: أبو حيان التوحيدي للدكتور أحمد الحوفي 1/ 23، ينظر: تيارات الفكر والأدب والفن في مؤلفات أبي حيان التوحيدي ص 65.

أما مَنْ اخْتَلَف عن كلِّ الدَّارسين والباحثين المُحْدَثين السَّابقين في تحديد تاريخ مَوْلد التَّوحيدي، فهو عَبُّود الشالجي مُحَقِّق كتاب (الرسالة البغدادية) للتوحيدي[1]، حيث ذَهَب إلى أنَّ التَّوحيدي وُلِد عام 332هـ أو 335هـ، وقد انْفَرَد الشَّالجي بهذا الرَّأْي وذلك بِدَعْوى وجود تَصْحِيف في نَصِّ رسالة التَّوحيدي، التي يُبَيِّن فيها سبب إحراق كتبه، ويكون ما ذَكَره من (عَشْر التِّسعين) المَقْصود به (عَشْر السَّبْعين)، ولم يُقَدِّم الشالجي أيَّ دَليل على وُجُود مثل هذا التَّصْحيف، سُوى وُرُود التَّصحيف بَيْن التِّسعين والسَّبْعين في كُتُب التَّوحيدي الأخرى، وهذا لا يَنْهَض دليلاً على وُجُود التَّصحيف في مثل هذا المَوْضع، وإن كان في كلام الشَّالجي ما يَدْعو للتَّأَمل والبَحْث في تاريخ مَوْلد التوحيدي، إذْ لَوْ كان مَوْلده هو عام 310هـ أو 312هـ كما ذَهَب السَّندوبي وغيره، وكان تاريخ وفاته هو 414هـ كما رَجَّحَ أكثر الذين تَرْجَموا له، فَسَيَكون عُمْر التَّوحيدي عند وَفَاته قَد تَجَاوز المائة.

وبصفةٍ عامة فإنَّ المُلاحظ أنَّ المَصادر القديمة قد سَكَتَتْ عن تَحديد تاريخ مَوْلد التَّوحيدي، إذْ لَمْ يكنْ هناك خَبَرٌ مُحَدد وواضح يُبَيِّن هذا التاريخ، في حين اجْتَهَدَت الدِّراسات والأَبْحاث الحَديثة في التَّوصل إلى تَاريخ مَوْلده، وكانت هذه الجُهُود كُلُّها قائمة على عامِلَين: الأول: هو الاسْتِنْتاجات، والثاني هو التَّبَعِية والتَّقليد.

أما تاريخ وفاة التوحيدي، فقد اخْتَلَفَتْ أيضاً المصادر القديمة والحديثة اخْتلافاً بَيِّناً في هذا التاريخ، حيث ظَهَرَت خَمْسة تواريخ تَرَدَّدت في كُتُب التراجم التي تَرْجمت للتَّوحيدي أو تَحَدَّثت عنه، وهذه التواريخ هي 360هـ، و380هـ، و400هـ، و403هـ، و414هـ.

أما تاريخ 360هـ فَقَدْ طَرَحَه زَرْكُوب الشيرازي ت 789هـ في كتابه (شِيراز نَامِه)[2]، فقد رَوَى عن أَبِيه أنَّه رَأَي مَقْبَرة أبي حيَّان مَكْتُوب عَلَيها أنَّه تُوفِّي عام

(1) ينظر: مقدمة تحقيق الرسالة البغدادية ص 16 وما بعدها.

(2) ينظر: أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي 1/ 24.

360هـ، وسَوف نَرَى مَدَى ضَعْف هذا الرَّأْي أو تلك الرِّواية بعد أنْ نستعرض التاريخ التالي الذي قِيل عن وفاة التوحيدي، وهو عام 380هـ والذي طَرَحَتْه بعض المصادر القديمة، ومن الذين ذَكَروا هذا التاريخ هو (الصَّفَدي ت 764هـ) في كتابه (الوَافي بالوَفَيات)، وعلى الرغم من أنَّ الصَّفَدي قد نَقَل كثيراً مما كَتَبَه ياقوت في معجمه عن التوحيدي، إلا أنَّه ذَهَب إلى أنَّ التَّوحيدي مات عام 380 هـ[1]، فالصَّفَدي لم يُحَدِّد بِدِقَّة تاريخ الوفاة، ووَضَع التاريخ في دائرة الاحتمالات، لكنه بالتأكيد قد جَانَبَه الصَّواب في تحديد هذا التاريخ لما سنرى من أسباب.

ومِمَّن وَقَع من القدامى في نَفْس الوَهْم من أنَّ وفاة التَّوحيدي كانت عام 380هـ، السُّيوطِي ت 911هـ في كتابه (بُغْية الوُعاة)؛ فقد ذكر فيما يُشْبِه الجَزْم أنَّ التَّوحيدي (مَاتَ في حدود الثَّمانين والثَّلاثمائة) ولم يَضَعَها في دائرة الاحتمالات كما فَعَل الصَّفَدي، والمُلْفِت أنَّ السُّيوطي نَقَل هو الآخر من يَاقوت كل ما كَتَبَه عن التَّوحيدي، ومنها خَبَر إِحْراق التَّوحيدي لِكُتُبِهِ، وقَدْ فَاتَهُ أن ياقوت ذَكَر في رواية حَرْق التَّوحيدي لِكُتُبه أنَّ القاضي أبَا سَهْل قد عاتبَ التَّوحيدي على ذلك، فَأَرْسَل له رسالة يَعْتَذر عن حَرْقه لِكُتُبه، ويُبَيِّن أسباب هذا الإحراق، وكان تاريخ هذه الرسالة في حدود 400هـ، هذا بالإضافة إلى وُقُوع السُّيوطي في تَنَاقضٍ واضحٍ؛ فَبَعْدَ أنْ ذَكَر بما يُشْبه الحَسْم أنَّ تاريخ وفاة التَّوحيدي في حدود الثمانين والثلاثمائة، ذَكَر بعض من رَوَوا وسَمِعوا عن التَّوحيدي، فقال: (وسَمِعَ منه أبو سعيد عبد الرحمن بن مَمَجَّة الأصبهاني بِشِيراز في سنة أَرْبعمائة)[2]، فكيف يكون التَّوحيدي قد مات في عام 380هـ، كما قال السُّيوطِيُّ وجَزَم بذلك، ويكون قد سَمِعَ منه أبو سعيد بن مَمَجَّة بشيراز في سنة 400هـ كما ذَكَرَ السُّيوطِيُّ نفسه!!

والكثيرُ مِن المَصادرِ القديمة تكادُ تُجْمِع على أنَّ التَّوحيدي كان على قَيْد

(1) الوافي بالوفيات 22/ 28.

(2) بغية الوعاة 2/ 191.

الحَياةِ عام 400هـ، يقول ابن حَجَر العَسْقَلاني ت 852هـ (بَقِيَ إلى سَنَة أربعمائة)[1]، بل إن ذلك ما يُوَضِّحه التَّوحيدي نَفْسه في مَوْضِعين:

الأول: في رسالته التي أرسلها يعتذر عن إحراق كُتُبه، والتي نص ياقوت أنها كانت في عام 400هـ والتي مَرَّ ذِكْرُها.

والثاني: هو ما ذَكَرَه التوحيدي في مُقَدمة كتابه في (الصداقة والصديق) من أنَّه بَدَأَ في تَحْرير كتابه ذلك في عام 400هـ، عندما بَدَأ في تَبْييض مُسَوَّدة الكتاب[2]، ولهذا فَمِن المُؤَكَّد اسْتِبعاد عام 380هـ كتاريخ لوفاة التوحيدي.

أما التاريخ الثالث 400هـ فهو ما ذَكَرَه شَمْس الدين الذَّهَبي ت 748هـ، حيثُ يَقولُ عن تَاريخ وَفاتِه أنَّه (كانَ في حُدودِ الأَرْبَعمائة)[3]، وهو رَأْيٌ لَيْسَ هناك ما يُعَزِّزه منْ دَلائِل أو أخبار، بل إنَّ الاستنتاج يُبْعِدنا عن هذا العام، وخاصة أَنَّه عَامٌ مُمَيَّز فيه من الأحداث الكثيرة المُتَعَلِّقة بحياة التَّوحيدي ومنها إحراقه لكتبه، وكذلك إرساله رسالة الاعتذار للقاضي أبي سهل عن إحراق كتبه، ومنها تَحْرِيره لكتابه في الصداقة والصديق، مما يعني أنه كان على قَيد الحياة لما بَعْد الأربعمائة.

أما التاريخ الرابع: وهو 403 هـ: فمن المُحْدثين من حَسَم تاريخ وفاته، فالسَّنْدوبي[4] يَجْزم بأن وفاته كانت عام 403هـ وذلك بناء على الاسْتِنْتاج السَّابق الذي ذَهَب إليه في تاريخ مَوْلِده، وأنه كان في عَشْر التسعين عام 400هـ، وما طَرَحه السَّندوبي من تاريخ وفاة للتَّوحيدي قد انْفَرَد به، إذ لم نَجِدْه عند القدامى ممن تكلموا عن التَّوحيدي أو تَرْجموا له، ولم نَجِده حتى عند المُحْدثين أيضاً، فالملفت أن حسن السندوبي قد جَزَم في كلا التَّاريخين المولد والوفاة دون وضعهما في دائرة الاحتمالات أو الفرضيات.

---

(1) ميزان الاعتدال 4/ 518.

(2) الصداقة والصديق للتوحيدي تحقيق الكيلاني ص 35، ورسالة الصداقة والصديق ضمن (رسالتان للتوحيدي) ص 6.

(3) تاريخ الإسلام للذهبي 8/ 837.

(4) ينظر: مقدمة تحقيق المقابسات للتوحيدي، لحسن السندوبي ص 18.

أما التاريخ الخامس: الذي ذَكَرَه القُدامى لوفاة التوحيدي فهو عام 414هـ، وهو ما طَرَحَه الفَيْرُوزآبادي ت 817هـ بِصِيغة الجَزْم، يقول: (مات سنة أربع عشرة وأربعمائة بِشيراز)[1]، وممن اختار عام 414هـ من المحدثين الأستاذ أحمد أمين في مُقَدِّمة تحقيقه لِكتاب (الهوامل والشوامل)، وكذلك الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني في القرن الرابع)، مُتَّبِعاً ما ذُكِر في تاريخ شِيراز، وكذلك الدكتورة وِداد القاضي في مقدمة تحقيقها لكتاب (الإشارات الإلهية)، وكذلك الدكتور أحمد فهمي عيسى[2]، وهذا التاريخ هو ما نميل إليه ونُرَجِّحه.

***** ثالثاً: التوحيدي وأهم سمات عصره:**

لقد وُلِد التوحيدي في أَرْجَح الأقوال عام 322هـ وذلك على مَقْرُبة زَمَنِية من تَوَلِّي الخليفة العباسي الرَّاضي بالله والذي تَوَلَّى الخلافة عام (322هـ) وتُوُفِّي عام (329هـ)، وهي فَتْرَة فَارقة في تَاريخ الدَّولة العبَّاسية، إذ يُعَدُّ الخَليفة الرَّاضي بالله أَوَّل خَليفة انْفَلَتَ السَّلطان والحُكْم من يَدِه، فَفِي عَهْده دَخَل (ابنُ رَائِق) بَغْداد واستولى على البَّصرة وواسِط، وكذلك ظَهَر (بنو بُوَيْه) وبَدَأوا في الاسْتِحْواذ تَدْرِيجياً على بلاد فارس، وأقام (بنو حَمْدان) مُلْكَهم في الموصل ثم حلب، وفي عهده تَوَلَّى (محمد بن طُغْج الإِخْشِيدي) ولاية مِصر، حتى أن الخليفة الراضي بالله هو الذي لَقَّبه بالإخشيد!!

كُلُّ هذا وغَيْرُه في فَتْرة حُكْم الرَّاضي بالله الذي أَصْبَح أَمْر الخِلافة في عَهْده اسْمِيًّاً، ولا قِيمة له، واسْتَمَر ذلك الوَضْع حتى نهاية الدولة العباسية[3]، فَتَعَاقب

(1) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص 199.

(2) ينظر: مقدمة تحقيق الهوامل والشوامل لأحمد أمين ص ح، ينظر: النثر الفني في القرن الرابع 2/ 133، مقدمة تحقيق الإشارات الإلهية للدكتورة وداد القاضي ص 5، ينظر: تيارات الفكر والأدب والفن في مؤلفات أبي حيان التوحيدي ص 121.

(3) ينظر: تاريخ الطبري: 11/ 284، وينظر: تجارب الأمم وتعاقب الهمم لمسكويه 5/ 381، وتكملة تاريخ الطبري للمقدسي ص 82، والإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ص 163 والكامل في التاريخ لابن الأثير 7/ 19.

الخُلفاء الذين لم يكن يَعْرف النَّاس سوى أَسْمائهم، وتوالت الانْقِسَامات تُمَزِّق ما تَبَقَّى من جَسَد الدولة الإسلامية، وسَادت في كَثير من الأوقات حالات من الفَوْضى والاضْطِراب وانْعِدام الأَمْن، طال حتى بغداد نَفْسِها، وقد أَثَّر ذلك على حياة الناس ومعاشهم، ولمْ يَكُن التَّوحيدي بمَعْزِلٍ عن هذه الأجواء المُضْطَّربة، فقد تَأَثَّر بما اعْتَمَلَ فيها، يقول الدكتور زكريا إبراهيم: (فالتَّوحيدي رَجُل عاش في بِيئَةٍ سِياسيةٍ حَافلةٍ بالفَوْضى والاضْطراب، كما عاصَرَ فَسادَ الحياةِ الاجْتماعيةِ والاقْتصاديةِ في ظِل حُكْم بني بُوَيْه، وليس من شَكٍّ في أنَّ آثار هذا العَهْد القاسي المُظْلم قد انْعَكَسَت على تَفْكِيره وأسلوب معاشه..)[1].

والأَهَم من ذلك أنَّه شَارك بِحِسِّه التَسْجِيلي في وَصْفِ كثيرٍ من الحوادث التي دَارت في عَهْده، وخاصة الفِتَن والقَلاقل، وما كَتَبه التَّوحيدي من نصوص هي شَواهد تاريخية لا تَقِلُّ أهمية عما سَجَّله المؤرخون عن تلك الفترات، بل هي تَفُوقُ بَعْضَ ما كَتَبَه عَدَدٌ من المؤرخين عن تلك الفترة، إذ يَتَّسِم أسلوب التَّوحيدي بالقُدْرة البَيَانية على التَّصوير الدَّقيق، والوَصْف الحَقِيقي لواقع الناس في الشوارع والبيوت والأسواق، ففي كتابه (الإمتاع والمؤانسة) تَطَرَّق إلى مِثْل هذه الأمور الخاصة بحياة الناس السِّياسية ومَعَايشهم الاقتصادية وأحوالهم الاجتماعية، فيسجل التوحيدي في صَفَحات طويلة ما دَارَ في بَغْداد في هذه الأوقات من هَرْجٍ واضْطِراب وفِتْنة، والتَّوحيدي يُسَجل تلك الأحداث، وهو شاهد عليها مُعَايش لها، بل ومُتَضَرِّر منها، فما سيقوله هو على حد قوله: (خَبرُ من شَهِدَ أوَّلَها - يعني الفِتْنة - وغَرِق في وَسَطِها، ونَجَا في آخِرها).

ويَمْضِي التَّوحيدي في هذا الوَصْف الدَّقيق للمَشْهد مُسَجِّلاً الواقع السياسي والاجتماعي وقتها، ولَمْ يَفُتْه كِتابة وتَسْجيل أسماء عَدَدٍ من الأعْيان والعُلماء الذين حاولوا التَّصدي لهذه الفِتْنة، بل وسَجَّل بِدِقَّة الحِوار الذي دار بَيْنَ وَفْد العلماء وبين الخليفة (عِزِّ الدَّولة)، وهو حوار لا يَقِلُّ أهمية عن خُطَب ومَقُولات كِبار العُلماء

(1) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء للدكتور زكريا إبراهيم ص 6.

والزُّعماء السِّياسِيِّين في مَواقِف الشَّدَائد، فَسَجَّل ما قَالَه كلُّ واحدٍ منهم، ولَمْ يَكْتَف التَّوحيدي بِتَسْجِيل أسماء العُلَماء والأَعْيان وما قالوه، بل جَاوَزَه - بِحِسِّه التَّسْجِيلي - إلى أَكْثَر من ذلك حَيْث سَجَّل أسماء العَيَّارِين واللُّصُوص الذين عُرِفُوا في هذه الفِتْنة، ولَمْ يَفُتْه أنْ يَكْتُب عمَّا حَدَث له نَفْسِه ولِبَيْتِه مِنْ سَلْبٍ ونَهْب[1].

ولا نَنْسَى أنَّ التَّوحيدي بالإضافة إلى مُعَايشته الواقع الاجتماعي والسياسي لمجتمع بغداد خاصة ومجتمع العراق عامة، قد كان على صِلاتٍ ببعض الوُزراء في فتراتٍ مختلفة، وهؤلاء الوُزراء يُمْكِننا أنْ نُقَسِّمهم إلى وُزراء اتَّصل بِهِم ثُمَّ ساءَت عَلاقَته بِهم فَذَمَّهم وأَظْهَر مَعَايبهم، وَوُزراء اتَّصَل بِهم وأَشَاد بِهم واسْتَفَاد مِنْهم، ووُزراء أَكَّد البعض اتِّصاله بهم لكنَّ هذا الاتِّصال مَوْضع شَكٍّ.

أما الوزراء الذين اتَّصَل بهم وكان يأمل أن يَحْظَى لديهم بالقَبُول وبالنَّفْع، فهم: الوَزير أبو الفَضْل (مُحمد بن الحُسَيْن) بن العَمِيد ت 360هـ والذي لُقِّب بالأُسْتاذ وبِالرَّئِيس، وابنه أبو الفَتْح (عَلِي بن محمد بن الحُسَين) ابن العَمِيد ت 366هـ المُلَقَّب بِذِي الكِفَايَتَيْن كِفاية السَّيف والقَلم، والثالث هو الوزير (أبو القَاسِم إسماعيل بن عَبَّاد) الصَّاحِب بن عَبَّاد ت 385هـ، والمُلَقَّب بِكَافِي الكُفَاة، فعَلاَقَتِه بهؤلاء الوزراء لَمْ تَسْتَمر طَويلاً، وتَكَدَّرت بِفِعْل عَوَامل كَثيرة سيأتي ذِكْرِها في سِيَاق هذه الدِّراسة، لكنَّ ما يهمنا هنا هو أنَّ هذه العلاقة وذلك الاتصال قَد نَتَجَ عنه تَأْلِيف كِتابٍ في فَنِّ الهِجاء النَّثْري لِهَذين الوَزيرين وهو كتاب (أَخْلاق الوزيرين أو مَثَالب الوَزِيرين) كما سنوَضِّح لاحقاً.

أمَّا الوزير الذي اتَّصَل به التَّوحيدي وأَفَاد مِنه وأَشَاد به، وكانت عَلاقته به طَيِّبة، فهو الوزير ابن العَارض (أبو عبد الله الحُسَيْن بن سَعْدَان ت 375هـ) وزير صِمْصَام الدَّولة البُوَيْهِي، وقد أَهْدَى التَّوحيدي لابن العارض أو ابن سَعْدَان كِتَابين منْ كُتُبِه:

(1) ينظر: الإمتاع والمؤانسة 3/ 150 وما بعدها حتى 162.

أمَّا الأوَّل: فهو كِتاب (الإمتاع والمُؤَانسة)، وهذا ما اسْتَدَل عليه الأُسْتاذان أمين وصَقْر في مقدمة تحقيق الكِتاب.

والكتاب الثاني: هو كتاب (الصَّدَاقة والصَّدِيق)، حيث ذكر التوحيدي ذلك في بداية كتابه.

أما الوزير الذي نُشَكِّك في صِلَة التَّوحيدي به فهو الوزير (أبو مُحمد الحَسَن بن مُحمد المُهَلَّبي ت 352هـ)، وزير مُعِزِّ الدَّولة، فقَدْ نَصَّتْ بَعْضُ المصادر القديمة التي تَرْجَمت للتَّوحيدي، على أنَّ الوزير المُهَلَّبي قد اكْتَشَفَ سُوء عَقِيدة التَّوحيدي فَنَفَاهُ، وهذا ما قاله الذَّهَبِي في تَاريخ الإسلام وفي سِيَر أعلام النُّبَلاء: (وكانَ سَيِّئ الاعْتِقَاد - أي التَّوحيدي -، نَفَاهُ الوَزير أَبُو مُحَمَّد المُهَلَّبِي)[1]، وذَكَر الذَّهَبي أيضاً هذا الكلام نَقْلاً عن البَابِي في كِتَابه (الخَرِيدة والفَرِيدة)، يقول: (فَطَلَبَهُ الوَزير المُهَلَّبِي فَاسْتَتَرَ مِنه، ومَاتَ في الاسْتِتَار، وأَرَاح الله منه)[2]، ونَقَلَ الصَّفدي في كتابه (الوافي بالوفيات) هذا الكلام أيضاً[3].

لكنَّ المُتَأَمِّل في هذه العَلاقة المُفْتَرضة بَيْن الوزير المُهَلَّبي وبَيْن التَّوحيدي، سيلاحظ أنَّها مِن الصَّعْب بل من المُسْتَحيل أنْ تَكُون قَد قَامَتْ بالفِعْل، فالوزير المُهَلَّبِي كما تُجْمِع المَصادر القَديمة كُلُّها قد توفي عام 352هـ، وإذا سَلَمْنا بأنَّ وفاة التَّوحيدي على أَرْجَح الأقوال في عام 414هـ، فَيَكُون بَيْن وَفاة الاثْنَيْن أَكْثر من سِتِّين عاماً، ولا يُمْكِن لو افْتَرَضنا لقاء المُهَلَّبي بالتَّوحيدي، أنْ يَبْقَى التَّوحيدي حَسَب الرِّواية مَنْفِياً أو مُسْتَتراً من الوَزير المُهَلَّبي كل هذه الفترة، ثُمَّ يَمُوت التَّوحيدي وهو مُسْتَتِر، وكل ذلك مُنَاف للعَقْل والمَنْطِق وتَرْتِيب الأَحْدَاث.

فالتَّوحيدي في هذه الأَعْوام السِّتِّين قد أَلَّفَ كُتُبَه وأَهْدَاها إلى من أَهْدَاها لهم، وحَضَر مَجالس عِلْمية وأَدَبية، وعاش فَتْرة في كَنَف الوَزير الصَّاحب ابن عَبَّاد

(1) تاريخ الإسلام 8/ 837.

(2) تاريخ الإسلام 8/ 837، وسير أعلام النبلاء 12/ 547.

(3) الوافي بالوفيات 22/ 27.

من عام 367هـ إلى عام 370هـ، وعاد مِن بغداد عام 370هـ، بعد أنْ أَخْفَقَ في علاقَته بابن العميد وابن عبَّاد، وهو ما دَفَعَه لِكتابةِ كِتَابَه (أخلاق الوزيرين) في ذَمِّهما، فإذا كان الأمر كذلك فَكَيْف يُقال أنَّ الوزير المُهَلَّبي الذي تُوُفِّي عام 352هـ، قدْ اطَّلَع على سُوءِ أفكاره، فَنَفَاهُ أو طَلَبَه فَهَرَب واسْتَتَر منه؟!، إضافة إلى أنَّ ياقوت الحموي الذي تَرْجَم لكلا الرَّجُلَيْن (التَّوحيدي والمُهَلَّبِي) لم يَذْكُر هذه القِصَّة من اتِّصال التَّوحيدي بالمُهَلَّبي، أو اطِّلاعه على سُوءِ عَقيدته فَضْلاً عن هُرُوبه منه واسْتِتَاره!

ومن دَوائر العَلاقات التي عاشها التَّوحيدي أيضاً، صِلَتُه ببعض رِجال الدولة مِمَّن لهم صِلات بالوزراء والخلفاء، والذين اتصل بهم التوحيدي وتواصل معهم، ومن هؤلاء أبو عَلِي مِسْكَوَيْه (أحمد بن محمد مِسْكَوَيْه ت 421هـ) والذي لُقِّبَ بالخازن؛ لأنَّه كان خَازن كُتُب ابن العَمِيد، وهو فَيْلسوف ومُفَكر وصاحب كتاب (تَجَارب الأُمَم)، وقد اتَّصَل به التَّوحيدي اتِّصالاً قَوياً في فَتْرة من الفترات، وأَرْسل له أَسْئِلته التي بَنَى عليها كتابه (الهَوامِل والشَّوامِل)، وكذلك عَلاقة التَّوحيدي بأبي الوَفاء المُهَنْدس (محمد بن محمد البُوزجَاني ت 387هـ) وهو أَحَد العلماء المشهورين في عِلْم الهَنْدَسة، وغيرهم كثير مِمَّن يُشَكِّلون جزءاً رئيساً من واقعِ الحياة السِّياسية في بغداد وفي مُجْمَل العراق في هذا الوقت.

وعلى الرغم من تلك الأجواء السِّياسية المُضْطَربة التي شَهِدها عَصْر التَّوْحيدي، فقد شَهِد هذا العصر حَرَكة عِلْمِيَّة وثقافية شاملة، كانت على النَّقِيض مما شَهِدَه العَصْر من اضْطراب وقَلَق سِياسي، وتَفْسِير ذلك كما يقول الدكتور الحُوفي بِحَق أنَّ الحَركات العِلمية والأدبية لا تَتَماشَى مع العصور السياسية مَشْي التلازم المَحْض، وذلك (لأنَّ السِّياسة حَرَكة قد تَجِيء مُفاجِئة، وقد تَجِيء على مَهَل وتَدْبير، أما الحَركة العِلمية والأَدبية فَلَابُدَّ لها من تَمْهيد طَويل، ولابُدَّ لانْقِطاعها أو ضَعْفها من مُهْلة زَمَنِيَّة تَطُول أو تَقْصر)[1].

(1) أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي 1/ 16.

فقد عُرِفَ عن كُلِّ الدُّول والإمارات المُسْتقلة عن الخلافة العباسية اهْتِمامها بالأدب والعلم، بِداية من (آل بُوَيْه) في فارس وما حولها، والحَمْدانِيُّون (بني حَمْدان) في المَوْصِل وحَلَب، والغَزْنَوِيُّون في بلاد ما وراء النَّهْر، والفَاطِمِيُّون في مصر وبلاد المغرب..، وكان أكثر أُمراء وخلفاء ووزراء هذه الدُّول والإمارات من الشُّعراء أو الأدباء، وقاموا بِتَشْجيع العُلماء بكلِّ الطُّرُق المُتاحة، ولهذا شَهِدت هذه الفترة ازْدِهاراً واضِحاً في مُخْتَلف العلوم والفنون، وحَفِلَتْ عَواصِمُ ومُدُنُ هذه الدول والإمارات بالمَكْتَبات الخاصَّة والعامَّة ومَجالس العلماء والأدباء، ونَشَطَتْ التَّرجمة وأصبحت تُمَارَسُ بِشَكْلٍ جماعيٍّ ومُؤَسَّسي أكثر من كَوْنها محاولات فردية، واسْتَكْمَلَت بعضُ العلوم نُضْجَها واكتمالها، وظَهَرَت في الوَقْت ذاته فُنُون جديدة من الأدب والفكر، واشْتُهِر في هذا القرن عَدَدٌ كبير من علماء وشُعراء وكُتَّاب وفلاسفة ومُتَرْجِمين وفقهاء أكثر مما ظَهَر في وقت آخر.

ولم يكن أبو حيَّان بعيداً عن كل هذا الزَّخَم والحراك، بل كان في الوَسَط والقَلْب منه، فأبو حيَّان وبِحَق كان واحداً من أعمدة الثَّقافة العَرَبية في القَرْن الرَّابع الهِجْري، ويُعَد من الصور المضيئة والمعبرة تعبيراً واضحاً عن ثقافة وحضارة القَرْن الرَّابع الهِجري، وفي وَسَط هذا الحِراك نَشَأ التَّوحيدي وتَلَقَّى عُلومه ومَعارفه على مجموعة متنوعة من العلماء والفلاسفة الذين أَثَّرُوا بلا شَكٍّ في مُجْمَل اتِّجاهاته الفكرية والثَّقافية والنقدية.

**** رابعاً: شيوخه وأساتذته:**

تَلَقَّى التَّوحيدي العُلُومَ والمعارفَ التي حَصَّلَها وبَرَعَ في بَعْضِها من جِلَّة من شُيوخ وعلماء وأدباء عَصْره، وبالنظر إلى ما كَتَبَه عن هؤلاء في كُتُبه، أو ما أَكَّدته المَصادر القديمة والحديثة التي تَرْجَمت له، سَنَجِد أنَّ عَدَداً كبيراً من عُلَماء وشيوخ وأدباء بغداد والبَصْرة قد الْتَقَى بهم التوحيدي، وأَخَذ العلم عن بَعْضِهم وسَمِع من البعض الآخر، يقول شمس الدين الذَّهَبي أيضاً: (وسَمِع - أي التَّوحيدي - أبا بَكْر الشَّافعي، وجَعْفراً الخُلْدي، وأَبَا سَعِيد السِّيرَافِي، والقاضي أحْمَد بْن بِشْر

العَامِري)[1]، ويقول السُّبْكي عن التَّوحيدي ذاكراً بعض هؤلاء: (وَتَفَقَّه على القاضي أبي حامد المَرْوَرُّوذِي، وسَمِع الحديث من أبي بَكْر الشَّافِعي، وأبي سَعيد السَّيْرافِي، وجعفر الخُلْدِي، ولَعَلَّه أَخَذَ عنه التَّصَوُّف وغيرهم..)[2].

ومن الواضح باسْتِقْراء ما كُتِبَ عن التوحيدي، وما كَتَبَه هو نَفْسُه عن شُيوخه وأساتذته ممن سَمِع مِنهم وتَلَقَّى العلم عليهم أو الْتَقَى بهم، من الواضح أنَّهم كُثُرٌ، وفي كافة مَجالات العُلوم والمعارف من لُغَة وفِقه وحَديث وكَلام وفلسفة وتَصَوف، يَقُول التَّوحيدي في ذلك (أيها الوَزير قَدْ خَالَطْتُ العُلَماء، وخَدَمْتُ الكُبَراء، وتَصَفَّحْتُ أَحْوالَ النَّاسِ في أَقْوالِهم وأَعْمَالِهم وأَخْلاَقِهم..)[3]، على أنَّنا يُمْكِننا أن نَحْصُر أَهَمَّ الشيوخ والعلماء الذين الْتَقَى بِهم التَّوحيدي وتَعَلَّم على أيديهم، وتَأَثَّر بهم في مَجْمُوعة مُحَدَّدة، وهم: (أبو حَامد المَرْوَرُّوذِي، وأبو سَعيد السَّيْرافِي، وأبو سُلَيْمان السِّجِسْتانِي، ومِسْكَوَيْه، ويَحْي بن عَدِيٍّ، وعلي بن عِيسى الرُّمَّاني، ثم الجَاحظ) الذي تَأَثَّر به وإنْ لَمْ يُعَاصره، وسوف نَعْرِض بإيجاز تعريفاً بهؤلاء، ومدى صِلَة التوحيدي أو تأثره بهم.

** أما القاضي أبو حامد المَرْوَرُّوذِي (أحمد بن بِشْر بن عامر ت 362هـ)، فقد تَتَلْمذَ عليه التَّوحيدي في الفِقْه الشَّافعي، وفي التَّفْسير وعُلوم الشريعة، وأَشَادَ به وكان دائماً ما يَصِفُه بأوصافٍ طيبةٍ، فيها من التَّوقير والإجلال ما فيها، ويقول عنه: (سَمِعْتُ القاضي أبا حامد المَرْورُّوذِيِّ يقول، وكان سَيِّدَ الفُقَهاء في وَقْتِه، وإمامَ أَصْحَابه في عَصْرِه، وعَجِيب الفَضْل في جَميع أُمُوره)[4]، ويَصِفُه مرة أخرى مُبَرِّراً كَثْرة نَقْلِه عنه، فيقول: (وإنَّما أُولَعُ بِذِكْرِ ما يَقُولُه هذا الرَّجُلُ؛ لأَنَّه أَنْبَلُ مَنْ شَاهَدْتُه في عُمْري، وكان بَحْراً يَتَدَفَّقُ حِفْظاً للسِّيَر، وقِياماً بالأَخْبار،

(1) تاريخ الإسلام للذهبي 8/ 839.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 5/ 286 – 287 وبغية الوعاة 2/ 190.

(3) الإمتاع والمؤانسة 1/ 21.

(4) أخلاق الوزيرين ص 476.

واسْتِنباطاً للمَعَاني، وثَباتاً على الجَدَل، وصَبْراً في الخِصام)[1]، فالتوحيدي دائم الذِّكر له في مواضع كثيرة من كُتُبه، وهو كثير النَّقْل عَنه مما سَمِعه منه مباشرة في كل كُتُبه.

** أما أستاذه أبو سَعِيد السَّيْرافِي (الحَسَن بن عبد الله) ت 368هـ، فقد قال عنه التَّوحيدي: (وكان أبو سعيد بَعِيدَ القَرِينِ؛ لأَنَّه كان يُقْرَأ عليه القُرآن، والفِقْه، والشُّروط، والفَرائض، والنَّحو، واللُّغة، والعَروض، والقَوافي، والحِساب، والهَنْدسة، والحَديث، والأخبار، وهو في كُلِّ هذا إمَّا في الغَايةِ، وإمَّا فِي الوَسَط)[2]، وقد ذَكَر التَّوحيدي أبا سعيد في أكثر كُتُبه إن لم يكن كلها، وكان دائماً يَذْكُره في مَوْضِع الإشادة والتَّبجيل والتَّعظيم، وكان يَأْخذُ منه علومَ اللُّغة من نَحْو وصَرْف وغيرها، ويَسْأَله فيها ويَرْوي ما سَمِعه منه، فقد قَرَأَ عليه كتاب سِيبَوَيْه الذي يُعَدُّ السَّيرافِيُّ أَهَمَّ شُرَّاحه، وقَرَأ عليه غَيْره من الكُتُب في التَّاريخ وعِلْم الكلام والفلسفة، لقد أَفَادَ التَّوحيدي من تَتَلْمُذه على يد أبي سَعيد السَّيْرَافِيِّ الذي كان إماماً في اللغة وفي غيرها من العلوم والمعارف، وكان يَسْأَله ويَسْتَفْتِيه في أمور اللغة لكي يَضْبط الكثير مما يَتَعَلَّق بها من حيث الدلالة أو التركيب أو الصرف.

ويبدو أنَّ التَّوحيدي قد تأَثَّرَ بأبي سَعيد لَيْس في أمور اللُّغة فَحَسْب، بل في حُبِّ أبي سعيد للجَاحظ، فقد تَكَلَّم التوحيدي عن السَّيرافي في كتابه (تَقْرِيظ الجاحظ)، وهو الكتاب المفقود الذي لم يَصِلْنا، وقد نَقَل ياقوت الحَموي في مُعْجَم الأُدَباء كَلامَ التَّوحيدي عن أبي سَعيد ومدى حبه للجاحظ وتقديمه له، وعلى المُسْتوى الإنْسَاني كان أبو حيَّان وَفِيَّاً لأُسْتاذه، يَذْكُرُه بالخَيْر في حياته، ويَتَرَحَّم عليه بَعْدَ وَفَاته.

أمَّا عَلِيٌّ بن عِيسَى الرُّمَّاني (أبو الحسن عَلِي بن عِيسَى بن عبد الله الرُّمَّانِي ت 384هـ)، فقد كان عَالِماً مَوْسُوعياً مُتَبَحِراً في مختلف العلوم مِن فِقهٍ وحديثٍ

(1) الإمتاع والمؤانسة 2/ 11.

(2) المصدر السابق 1/ 133.

وكَلامٍ وأَدبٍ ولُغةٍ وشِعرٍ...، وكان مُتَكَلِّماً على مَذْهَب المُعْتَزِلة، وقَدْ ذَكَرَهُ التَّوْحيدي في مواضعَ عَديدةٍ مِن كُتُبِه، فقد قال عنه: (وأمَّا عَلِيٌّ بن عِيسَى، فَعَالِي الرُّتْبَة في النَّحْو، واللُّغَة، والكَلام، والعَرُوض، والمَنْطِق، وعِيبَ بِهِ - أي المَنطق - إلاَّ أَنَّه لم يَسْلُكْ طَريقَ وَاضعِ المَنْطِق، بل أَفْرَدَ صِناعةً وأَظْهَرَ بَراعةً، وقَدْ عَمِلَ في القرآنِ كِتاباً نَفِيسَاً، هذا مع الدِّينِ الثَّخِينِ، والعَقلِ الرَّزينِ)[1]، وتَكلمَ التَّوحيدي عن الرُّمَّاني وَضَمَّهُ في قَائِمة المُعْجَبِين بالجَاحظ في كتاب (تَقْرِيظِ الجَاحِظ) وكان يَصِفُهُ بالأوصافِ والأَلقابِ الطَّيِّبةِ، ومنها لَقَبُ الشَّيخُ الصَّالحُ أو النحوي الصالح، وقد اقْتَبَس منه ونَقَل عنه، وتكلَّم عن بعض تعريفاته للبلاغة وللإيجاز[2]، وبالإجمال فقد ذَكَرَ التَّوحيدي عَلِيَّ بن عِيسَى الرُّمَّاني في كُتُبِهِ في مواضع مختلفة، ورَوَى عنه الكثير.

وإذا كان التَّوحيدي قد أَخَذَ الفِقْهَ وعلومَ الشَّريعةِ من القاضي أبي حَامِد المَرْوَرُوذِّي، واللَّغةَ والنَّحْوَ مِن أبي سَعيد السَّيْرافِي، واللَّغةَ والنَّحْوَ والبلاغةَ والكَلامَ مِن عَلِيِّ بن عِيسَى الرُّمَّانيِّ، فإنه قد أَخَذَ الفَلْسَفة والمَنْطِق، واطَّلَعَ على ما تُرْجِمَ مِن فَلْسَفَةِ اليُونانِ من خِلال أُسْتَاذَيْهِ (أَبِي سُليمان السِّجِسْتَانِيِّ) و(يَحْيَ بن عَدِيِّ المَنْطِقِيِّ)، وقد ظَهَرَ أَثَرُهُما واضِحاً في كُتُبِهِ عامَّةً، وفي كتابه (المُقَابَسَات) على وجه الخُصُوص.

*** أما أُسْتَاذُهُ أبو سليمان السِّجِسْتَانِيُّ: (أَحْمَد بن طَاه بن بُهْرَام أبو سُلَيمان السِّجِسْتَانِيُّ المَنْطِقِيُّ) فقد توفي حوالي عام 380هـ، وهو فَيْلَسوف ومَنْطِقي ولُغَوي، وقد قَرَأَ أبو سليمان عَلَى مَتَّىَ بن يُونُس، وقام بِتَرْجَمَةِ كِتاب أَرُسْطُوطَالِيس، وذَكَر ابن أَبِي أُصَيْبِعَة أَنَّ له إِسْهَامَات في الشِّعْر والأَدَب[3]، وكان التَّوحيدي حَافِظاً لِمَوَدَّةِ أُسْتاذِهِ أبي سليمان، ومُلْتَصِقاً بِهِ ومُلازِماً لَه، ولهذا قال له الوزير ابن سَعْدان: (فَقَد

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 133.

(2) البصائر والذخائر 1/ 145.

(3) ينظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، 1/ 427.

بَلَغَنِي أَنَّكَ جَارُهُ، ومُعاشِرُهُ، ولَصِيقُهُ، ومُلازِمُهُ، وقَافِي خَطْوَهُ وأَثَرَهُ، وحافظُ غَايَةِ خَبَرِهِ)[1]، وقد كان أبو سليمان يُفِيدُ التَّوحيدي في اطِّلاعِهِ على كُتُبِ اليُونانِ الفَلْسَفية، فكان يُتَرْجِمُها لِطُلَابه ويُطْلِعُهُمْ عليها، وقد نَقَلَ كَثيراً مِمَّا سَمِعَهُ من أستاذه أبي سليمان في الكثير من كُتُبه وخاصة كتاب المقابسات.

***** أَخْذُهُ من: يَحْيَ بن عَدِيٍّ المَنْطِقِي النَّصْرَانِي:**

وهو الفَيْلَسُوف (أبو زَكَرِيَا يَحْيَ بن عَدِيٌّ ت 364هـ)، وكان من أَشْهَر تلاميذ الفَارَابِي وبِشْرِ بن مَتَّىَ، وكان مُتَضَلِّعاً في عِلْمِ المَنْطِق، ونَقَل كُتُبَ أرسطو من السُّرْيَانية إلى العربية، وقد وَصَفَه التَّوحيدي بأَوْصافٍ دقيقةٍ ومَوْضُوعِيةٍ تَتَحَدَّثُ عن مَزايَاهُ وعُيُوبِه أَيضاً، يقول: (وأمَّا يَحْيىَ بنُ عَدِيٌّ، فإنَّه كان شَيْخاً لَيِّنَ العَرِيكَةِ فَرُوقَةً - أي شَديد الخَوْفِ -، مُشَوَّهَ التَّرْجَمَة، رَدِيءَ العِبَارَةِ، لَكِنَّهُ كَانَ مُتَأَتِّياً في تَخْرِيجِ المُخْتَلِفَة، وقد بَرَعَ فِي مَجْلِسِهِ أَكْثَرُ هذه الجَماعَةِ، ولَمْ يَكُنْ يَلُوذُ بِالإِلَهِيَّاتِ، كان يَنْبَهِرُ فيها ويَضِلُّ في بِسَاطِها، ويَسْتَعْجِمُ عَلَيْه مَا جَلَّ، فَضْلاً عَمَّا دَقَّ مِنْها، وكان مُبَارَكَ المَجْلِسِ)[2]، ويبدو أنَّ يَحْيَ بن عَدِي لَمْ يَكُنْ مُتَمَكِّناً مِن فُنُون اللُّغة والشِّعْر، وقد صَرَّحَ التَّوحيدي بذلك في مَرَّاتٍ، ومِنها ما حَكَاهُ عن الشِّعْر الذي كَتَبَه يَحْي بن عَدِيٌّ وضَحِكَ مِنْه مَنْ سَمِعَهُ، وقد ذَكَر التَّوحيدي شَيْخَهُ يَحْي بن عَدِي، ونَقَل من كلامه في مواضع مُخْتَلفة من كُتُبه.

وبعد أن اسْتَعْرَضنا أَهَمَّ وأَبْرزَ الشُّيوخ والعُلماء الذين تَتَلْمَذَ عليهم التَّوحيدي، فمن الضروري التأكيد عَلَى أنَّ هؤلاء الذين ذَكَرْنَاهم لَيْسُوا هُمْ مَصَادِر التَّوحيدي فَحَسْب مِنَ العِلْم والمَعْرفة، بَلْ هُنَاكَ غَيْرُهم الكثير مِمَّنْ اسْتَفَادَ مِنْهُم والْتَقَى بِهِم وسَمع، وحتى الذين عَاصَرَهم ولم يَلْتَق بهم، كان له من عِلْمِهِم نَصِيب، وهذا ما تُؤَكِدُهُ النَّظرةُ المُتَأَمِّلة لِكُتُبِ التَّوحِيدي التي تَغُصُّ بِأَسْمَاءِ أَعْلامِ هذا القَرْنِ في مُخْتَلفِ الفُنونِ والعُلوم، فالتَّوحيدي لَمْ يَفُتْهُ أَنْ يَكْتُبَ عن عَشَراتٍ من العُلَماءِ

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 29.

(2) المصدر السابق 1/ 37.

والشُّيوخِ والكُتَّابِ والشُّعراءِ والنُّقَّاد والفَلاسِفَة والمُتَكَلِّمين والمُتَصَوِّفَة الذين عَاصَرَهم...

***** خامساً: تواصل التوحيدي مع كوكبة من علماء عصره:**

تُعَدُّ كُتُبُ التَّوحيدي سِجِلاً تَوْثِيقيّاً لِحَركةِ العِلْم والمَعْرفة في عَصْرِه بِكُلِّ اتِّجَاهاتها اللُّغوية والأَدبية والفَلْسَفية والكَلامية، لِهَذا لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرَباً مِنَ التَّوحيدي بِحِسِّهِ التَّسْجِيليِّ والتَّوثيقيِّ، أَنْ يَذْكُرَ أسماءَ الكثيرِ مِنَ العُلماءِ والفُقهاءِ والفَلاسِفة والمُتَرْجِمِين وعُلماءِ الكَلامِ والنُّقَّادِ والأُدَباءِ والشُّعَراء وكُتَّابِ الدَّوَاوِين، الذين عَرَفَهم وتَلَقَّى العِلْم عنهم، وسَمِع منهم، وهي أسماءٌ كثيرةٌ حَفِلَتْ بها كُتُبُه ورسائِلُهُ، وتَرَاهُ في كُتُبِه دائماً ما يقول: وسَمِعْتُ من فُلانٍ، وسَأَلْتُ فُلاناً، وقَرَأْتُ على فُلانٍ، وحَدَّثَنِي فُلانٌ، فَبِالإضافةِ إلى شُيُوخه من العُلماء والأُدَباء الذين تَتَلْمَذ عليهم وذَكَرَناهم فيما سَبَق، فَقَدْ ذَكَرَ التَّوحيدي العَدِيد مِنَ العُلماءِ والشُّعراءِ والأُدباء، وهو يُوَضِّحُ أنَّ ذلك مَنْهَجِيَّة مَقْصُودة مِنْه.

ولهذا نَرَاه في كُتُبِهِ يَذْكُر هؤلاء ومَا سَمِعَهُ مِنْهُم أو سَأَلَهُم إياه، أو مَا حَدَّثُوهُ بِهِ، فيتحدث عن ابن الجَلَبَات الشَّاعر والحَاتِمِيَّ والبَدِيهِيَّ والزَّعْفَرانِيِّ الشَّاعِرِ وأبِي بَكْر الخُوَارِزْمِيِّ الشَّاعِرِ وجُرَيْجُ المُقِلُّ الشَّاعر، وأبي السَّلْم الشَّاعِر والجَيْلُوهِيِّ الشَّاعِرِ، والصَّابِيَّ والضَّبْعِيِّ والخَلِيلِيِّ والمَأْمُونِيِّ وأبي صَادِق الطَّبَرِيَّ وابنِ المَرَاغِيِّ وأبِي جَعْفَر الوَرَّاقِ والتَّمِيمِيِّ الشَّاعِرِ وأبي سَعيد الأَبْهَرِيِّ وأَبي طَاهِرٍ الأَنْمَاطِيِّ وأبي حاتِم الرَّازِيَّ وابن الخَلَّالِ البَصْرِيُّ، ومُطَهَّر بن أحمد الكاتِب.. والشواهد وأسماء الأعلام على ذلك في كُتُبه أَكْثَرُ من أن تُحْصى.

فقد ذَكَر التَّوحيدي هؤلاء وغير هؤلاء مِمَّن عَاصَرَهم من شُعراء وأُدباء ولغويين كان على صِلَةٍ بِهِم وتَواصُلٍ معهم، وربما لا نَجِد ذِكْراً لِأَكْثَر هؤلاء في كُتُبِ التَّراجم أو اللُّغة والأدب، فكَأَنَّ التَّوحيدي تَفَرَّدَ بِذِكْرِ بَعْضِهم ممَّن لَم يَشْتَهِر ولم يُتَرْجَمْ له، ولم يَكْتَفِ بِذِكْر ما سَمِعَه أو أَخَذَهُ مِنْهم، بل كان صاحبَ نَظْرَةٍ نَقْدِية وتَحْلِيليةٍ مُتَمَيِّزة، بحيث اسْتَطَاعَ أَنْ يَصِفَ بَعْضَهم بِأَوْصَاف منها ما هو

مَوْضُوعِي مُحَايد، ومِنها ما قَدْ يَكُونُ تَحْتَ تَأْثِيرِ العوامل الذَّاتِية، وفي كُلِّ الأَحْوالِ فَقَدْ كان لديهِ إضَافَةً إلى ذلك الحِسِّ التَّسْجِيليِّ، حِسٌّ آخَر نَقْدِيٌّ تَصْوِيريٌّ ظَهَرَ في قُدْرَته على رَسْم لَوْحَاتٍ لِأَكْثَرَ هؤلاء الذين الْتَقَي بِهم أو سَمِعَ منهم.

ولهذا سَأَلَهُ الوزيرُ ابن سَعْدان عن بَعْضِ هؤلاءِ العُلَماء والأُدباء والفَلاسفة في عَصْرِه، وطَلَبَ مِنه أَنْ يَصِفَ كُلَّ وَاحِدٍ منهم، فقال له وهو يسأله عن أبي سُلَيمان السِّجِسْتَانِيِّ، وعن غيره من علماء ذَكَرَهم الوزير بالاسْم: (حَدِّثْنِي عن دَرَجَتِهِ في العِلْم والحِكْمَة، وعَرِّفْنِي مَحِلَّهُ فِيهِما مِنْ مَحِلِّ أَصْحَابِنا ابن زُرْعَة، وابن الخَمَّارِ، وابن السَّمْحِ، والقُومَسِيِّ، ومِسْكَوَيْهِ، ونَظِيف، ويَحْيَ بن عَدِيٍّ، وعِيسَى بن عَلِي..)[1]، وقد مَضَى التَّوحيدي يَتَكَلَّم عن كُلِّ واحدٍ مِنْهم بما يَعْرِفُه عنه بِأُسْلُوب النَّاقِدِ الخَبِير، الذي يَعْرِفُ مَزايا وعُيوبَ كُلِّ واحدٍ مِنْهم، وهذا يَدُلُّ على قُدْرَةٍ فَائِقَةٍ على التَّواصُلِ مع عُلَماءِ عَصْرِه وَمَعْرِفَتِه بهم.

فَتَكَلَّم عَن ابن زُرْعَة وهو فَيْلَسُوف مَنْطِقِي مِنْ عُلماءِ بَغْدادَ ت 398هـ، ثم تَكَلَّم عن ابنِ الخَمَّارِ، وهو طَبِيبٌ فَيلسوفٌ ومُتَرْجِم نَقَلَ الكثيرَ مِن الكُتُب مِنَ السُّرْيَانية إلى العَرَبِية، وتَكَلَّم عن ابنِ السَّمْحِ وهُو مَنْطِقِيٌّ من عُلماءِ بغداد ت 418هـ، ثم تَكَلَّم عن القُومَسِيِّ أبي بَكْرٍ القُومَسِيِّ الفَيْلسوف، ثم تَكَلَّم عن مِسْكَوَيْه الفَيْلَسوف صَاحب كِتاب (تَهْذِيب الأَخْلَاق) و(تَجَارُب الأُمَم) ت 421هـ، وتَكَلَّم عنْ نَظِيفِ النَّفْسِ الرُّومِيِّ، وهو طَبيبٌ وفَيْلَسُوفٌ ومُتَرْجم نَقَلَ من اليُونانية إلى العَرَبية، ثم تَكَلَّم عن عِيسَى بن عَلِيٍّ ت 391هـ، وهو مَنْطِقِيٌّ دَرَسَ على يَحْيَ بن عَدِيٍّ المَنْطِقي، ودَرَسَ الفِقْه والأَدَب وعَمِل في دِيوان الرَّسَائل، وقد نَقَلَ عنه أبو حيان كَثيراً، وذَكَرَه التَّوحيدي في مَواضِعَ مُخْتلفة.

إضَافَةً إلى فَلاسِفَةٍ آخَرين ذَكَرَهُم والْتَقَى بِهِم ورَوَى عَنْهم، من أَمْثَال أَبي زَكَرِيَّاء الصَّيْمَرِيِّ، وأَبِي الحَسَن العَامِرِيِّ، حتى أَنَّه خَصَّصَ له مُقَابَسَة مِن كِتَابِه

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 31 – 32 وما بعدهما.

المُقَابَسَات بِعِنْوان: (في حِكَم فَلْسَفِيَّة مِنْ كَلَام أَبِي الحَسَنِ العَامِرِيِّ)[1]، ومِنْ أَمْثَالِ النَّوْشَجَانِيِّ الذي الْتَقَاهُ وَسَمِعَ منه، ومن أَمْثَال وَهْب بن يَعِيش الرِّقِّيِّ اليَهُودِي، فالتَّوحيدي قد سَمِعَ منه ونَقَلَ عنه، وذَكَرَ غَيْرَ هؤلاءِ مِن فَلاسِفَة ومَنَاطِقة عَصْرِه.

وقد كان التَّوْحِيديُّ يَرْصُدُ نَواحِي تَمَيُّزِ هؤلاء فِكْرِيًّاً وتَعْبِيرياً واجْتِمَاعِياً ونَفْسِيًّاً كذلك، وَاصِفاً إيَّاهُم بِما لَهُم وبِما عَلَيْهم، وعَلَى الرُّغْم مِنْ أَنَّ هَؤلاءِ قد كانوا فَلاسِفة ومَنَاطقة ومُتَرْجِمين وكُتَّاب دَوَاوين، إلا أَنَّ التَّوحيدي اسْتَطَاع أنْ يَنْفُذَ إلى تَحْلِيل شَخْصِيَّاتهم وَأَفْكَارهم، وَبالإضافة إلى ذلك تَحْلِيلِ أُسْلُوبِهم وطَرِيقَتِهم في الكِتَابة الأَدَبية أو العِلْمِيَّة، وكلُّ ذلك يُطْلِعُنا على أَنَّ التَّوحيدي كانَ نَاقِداً لِطَرِيقةِ كُلٍّ مِنْهم، وخَبِيراً بِأَسَالِيبِهم فِي الكِتَابة، فَمَعَ ما ذَكَرَه عَنْهم من نَواحِي مُخْتلفة من العِلْم والفَلْسَفة وتَصْوِير جُزْءٍ من حَياتِهم العِلْمية والاجْتِماعية، لَمْ يَفُتْهُ أنْ يُنَوِّهَ بِخصائص الكِتَابة ومُقَوِّمات اللُّغة والقُدْرة على التَّعبير عِنْدَهم.

***** سادساً: مَصَادرُ كُتُبِ أبي حيان التَّوحيدي:**

كان التَّوحيدي مِمَّن يُسْنِدُون الكَثِير مِمَّا يَرْوُونَهُ في كُتُبِهم مِن أَخْبَارٍ ومَرْوِيَّات وأَقْوال ومأثورات، وكان مِنَ الذين عُرِفوا بِكِتَابة أَسْمَاءِ بَعْضِ مَصَادِرِهم التي اعْتَمَدُوا عليها، فقد نَهَجَ التَّوحيدي نَهْجَاً تَوْثِيقِيًّاً في بعضِ كُتُبِه، عندما حَدَّدَ بَعْضَ المَصَادِر التي اسْتَنَدَ إِليها، إمَّا فِي أَوَّلِ كتابه ومُقَدِّمته أو في سِياقِ الكتاب.

فهو يَتَحَدَّثُ مَثَلاً عَنْ أَهَمِّ مَصَادِرِه التي وَقَفَ عليها في جَمْعِ أَكْثَر مَادَةِ كِتابه (البَصَائِر والذَّخَائِر) يقول: (جَمَعْتُ ذلك كُلَّهُ فِي هذه المُدَّةِ الطَّوِيلة..، مِنْ كُتُبٍ شَتَّى، حَكَيْتُ عن أَبِي عُثْمان عَمْرو بن بَحْر الجَاحِظ الكِنَانِيِّ...، ثُمَّ كتابِ النَّوادِرِ لأبي عبد اللهِ محمدِ بن زيادٍ الأَعْرابيِّ، ثمَّ كِتابِ الكَامِل لأبي العَبَّاس مُحمدِ بن يَزيد الثُّمَالي، ثمَّ كتابِ العُيُون لأبي محمدٍ عبد اللهِ ابن مُسْلِم بن قُتَيْبَةَ الكَاتِبِ الدِّينَوْرِيِّ، ثمَّ مُجَالَسَاتِ ثَعْلَب، ثُمَّ كِتابِ ابنِ أَبي طَاهِرٍ الذي وَسَمَه بالمَنْظُومِ والمَنْثُورِ، ثم كتابِ الأَوْراق للصُّولِي، ثمَّ كتابِ الوُزَراء لابن عَبْدُوس، والحَيَوانات

(1) المقابسات ص 301.

لِقُدَامَةَ، هذا إلى غَيْر ذلك مِنْ جَوَامِع للنَّاسِ مُضَافَاتٍ إلى حِفْظِ ما فَاهُوا بِهِ، واحْتَجُّوا لَهُ، واعْتَمَدُوا عليه، في مَحاضِرِهم ونَوادِيهم، وحَواضِرِهم وبَوَادِيهم، مِمَّا يَطُولُ إحْصَاؤُهُ، ويُمَلُّ اسْتِقْصَاؤُهُ)[1].

ويُمْكِن أَنْ نَسْتَنْتِجَ من هذا الكلام ما يلي:

1- المَصَادرُ التي اعْتَمَدَ عليها التَّوحيدي حَسْبَما وَرَدَ في الفِقْرَةِ السَّابقة يُمْكِن أنْ تُعْتَبَر عَلَى نَوْعَين:

الأول: مَادةٌ مَكْتُوبةٌ مِن خِلال الكُتُب التي ذَكَرها، ويُمْكِن أنْ تُسَمَّى (المَصْدَر الكِتَابي أو المَكْتُوب).

والثاني: مادةٌ مَسْمُوعَةٌ، وهو (المَصْدَر الشَّفَوِي) أو (الرِّوَايَة الشَّفَوية)، التي سَجَّلَها مما سَمِعَه وحَفِظَه من كلام النَّاس في مَحاضِرهم ونَوادِيهم، وحَواضِرهم وبَواديهم كما قال.

فالرِّواية الشَّفَوية كانت تُمَثِّلُ لَدى التَّوحيدي مُقَوِّمَاً أَسَاسِيًّاً مِن مُقَوِّمات مَادَّته العِلْمية التي جَمَعها، ولهذا كان دائم التَّذْكير في مَواضِعَ مُخْتلفة بأنَّ ما كَتَبَهُ عن سَمَاعٍ وحِفْظ، فهو يقول مَثَلاً بَعْد أَن أَوْرَد عدداً من أقوال العَرَب في أُمُورٍ شَتَّى: (هذا كُلُّهُ عَنْ سَمَاعٍ وحِفْظٍ، ولَمْ آتِ فِيه مِن عِندي بِشَيءٍ، إلا ما جَرَى مَجْرَى بَيانٍ وشَرْحٍ وتَشْبيهٍ)[2].

2- وقد تنوعت مَصَادر التَّوحيدي التي أشار إليها في عِبارته السَّابقة من كتابِهِ (البَصائر والذَّخائر) تَنوعاً زَمَنِيًّاً ما بَيْنَ كُتُبٍ من القَرْن الثَّالِث الهِجْري لأعلام هذا القرن، ثم اعْتَمَد التَّوحيدي على مَصَادِرَ أُخْرَى لِمُؤَلِّفِين مِن أَعْلَامِ القَرْنِ الرَّابع الذين عَاصَرَهم..

3- ولَعَلَّ هذا التَّنَوع في تلك المَصَادر يَقِفُنَا على مَوْسُوعية أَبي حيَّان فِيمَا

(1) البصائر والذخائر 1/ 3-4.

(2) المصدر السابق 2/ 72.

يَطْرَحه من قَضَايا مُتَنَوِّعة تَخُصُّ الفَلْسَفة والأَدب والبَلاغة واللُّغة والنَّقد والتَّاريخ، وتلك سِمَةٌ عامَّةٌ وواضِحَةٌ وَسَمَتْ الثَّقافة العَربية الإِسْلامية في مَرَاحِلَ مُخْتلفة من تاريخها، كما نَجِدُها عند الجَاحِظ في بعض كُتُبِه مثل (البَيَان والتَّبْيين) و(الحَيَوان)، وابن قُتَيْبَة في كِتَابه (عُيُون الأَخْبار)، وابن عَبْد رَبه الأَنْدَلُسِي في كتابه (العِقْد الفَرِيد)، والقَلْقَشَنْدِيُّ في كتابه (صُبْح الأَعْشَى)، وغير هؤلاء كَثِيرون مِمَّن جَعَلُوا بَعْضَ كُتُبِهم مَوْسُوعَات تَتَضَمَّن الكثير مِن المَوْضُوعَات والقَضَايا المُرْتبطة بالثَّقافة العَربية الإِسلامية.

4- ويَتَّسِمُ الكَثير مما كَتَبه التَّوحيدي بأمانةِ النَّقْلِ، وعَزْوُ الكَثِير مِمَّا نَقَلَه إلى مَصْدَره، فهو يقول بعد أنْ يَذْكر هذه المصادر التي اعتمد عليها في مقدمة كتابه البصائر والذخائر: (وسَيُعْتَزَى في التَّفْصِيلِ كُلُّ شَيْءٍ منه إلى مَعْدَنِهِ، ويُنْتَسَبُ إلى قَائِلِه)[1]، لكن علينا التَّأكيد أَيْضاً أنَّ كَثيراً ممَّا رَوَاه التَّوحيدي وضَمَّنه بعضَ كُتُبِه لم يَكُن مَعْزُوَّاً إلى مَصْدرٍ مُحَددٍ كِتابي أو سماعي، خاصة في داخل فُصُول الكتاب، وذلك لصعوبة ذلك، فهو قد أَشارَ إلى مَصَادِره في أوائِلِ كُتُبه أو أوائلِ بعضِ فُصُوله مُكْتَفياً بذلك.

5- ومع تَنَوُّعِ واخْتِلافِ هذه المَصادرِ التي اعْتَمَدَ عليها، لم يَكُن التَّوحيدي مُجَرَّدَ نَاقِلٍ، بل هو نَاقدٌ وراصدٌ لِكَثيرٍ مما يَعْتَري الكُتُب من تَحْرِيفٍ أو تَصْحِيفٍ أو أخطاء، فقد ذَكَر بَيْتَاً مِنَ الشِّعْر، ثم قال مُعَقِّباً: (هكذا كان فِي مُسَوَّدَةِ ابنِ العَميدِ: يُقْصَى بالصَّادِ، ولَعَلَّه: يُقْضَى)[2].

6- كان ما تُرْجِمَ من الثَّقافَةِ اليُونَانِيةِ خاصة الفَلْسَفة والمَنْطِق، أَحَدَ رَوافِد ومَصَادر المَادَّةِ التي اعْتَمَدَ عليها التَّوحيدي، فهو كَثيراً ما يُورِدُ مَقُولاتٍ وآراء لِأعلامِ الفَلْسَفَةِ اليُونانيةِ كَسُقْرَاط وأَفْلاطُون وأَرُسْطو ذاكراً عنوان الكتب المترجمة التي نقل عنها.

(1) البصائر والذخائر 1/ 5.

(2) المصدر السابق 6/ 165.

7- وللتَّوحيدِي رَأْيٌ في إِسْناد ما يُورِدُهُ من كلام خاصة في الحَدِيثِ الشَّريف، أو رِوايةِ بعضِ الأَخْبَارِ والحِكايات، فهو لا يُقَلِّلُ مِن قِيمَةِ الإِسْنَاد، أي ذِكْر سَنَد الرِّواية، لَكِنَّه يَحْذِفُه في أكثرِ المَواضِع، مُؤَكِّداً على أنَّه يَحْذِفُ الإسناد (لأنَّ الغَرَضَ يَقْرُبُ، والمُرادُ يَسْهُلُ، والإِسْنادُ يُطِيلُ ويُمِلُّ المُسْتَفيد، على أنَّ الإسنادَ زَيْنُ الحَديثِ، وعَلامةُ السُّنَّةِ، وسَببُ الرِّوايةِ)[1]، فهو لا يُنْكِرُ أهميةَ الإسنادِ، بل يَعْتَبره زَين الحَديث وعلامة السنة، لكنَّه يَحْذِفه مَخَافة التَّطويل والمَلَل.

8- لم تَكُنْ مباحثُ اللُّغَة والأَدَب والبَلاغة والنَّقد بعَيدةً عن اهْتِمام التوحيدي، بِدَليلِ تَأكيدِه على طَرْحِها مِن خلالِ المَصادِرِ التي اعْتَمَد عليها، ولم يَقْتَصِر عَلَى لَوْنٍ أو فَنٍّ واحدٍ من فُنُون الأَدبِ، حيث اهتمَّ بالشِّعْر وبالنَّثْر بِكُلِّ أَلْوَانِه وفُنُونه من المَثَل السَّائِر، والرِّسَالة، والخُطْبة، والحِكْمة وغير ذلك، وقَدْ اعْتَمَد على عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الكُتُب الأَدَبية والنَّقدية التي وَصَلَته، وهي مِن عُيونِ الكُتُب الأَدَبية الرَّائدة التي طَرَحَتْ قضايا الأَدَب والبَلاغة والنَّقد، وهي كُتُبٌ تُشِير إلى اطِّلاعِ التَّوحِيدي على ما وَصَلَ إليه التَّأْليفُ في الأَدَب، والبَلاغة العَربية، والنَّقْد الأَدَبي حتى وَقْتِه، ولهذا فَسَوْف نُلْقِي الضَّوءَ على مَصَادرِهِ في هذه القضايا.

***** 1- مصادره اللغوية والأدبية:**

مِنَ المَعْلوم أنَّ أكثرَ كُتُبِ القُدَامى الأَدَبية - خَاصَة في المَراحِل المُبَكِّرة - كانت تَتَدَاخَلُ فيها مباحثُ اللُّغة والأَدب والبَلاغة والنَّقد، لهذا فإنَّ مَصادِر التَّوحيدي مِن هذه الكُتُب في اللُّغة والأَدب والنَّقد كثيرة ومُتَنَوِّعة، تَمْتَدُّ من أَوائِل الكُتُب والمُؤَلَّفات التي صُنِّفَتْ وُصُولاً إلى عَصْره، وسوف نُفْرِدُ لهذه المَصَادر مِساحة من هذه الدِّراسة في الفَصْل الأَوَّل عندَ الحديثِ عن الاتِّجاه اللُّغَوي في النَّقد الأَدبي عندَ التَّوحيدي.

على أنَّ ما نريدُ التَّأكيد عليه هنا هو تَنَوُّع وثَراءُ هذه المصادر، فَمِنْ مَصادِرِهِ

(1) البصائر والذخائر 2/ 77.

الرَّئيسة كُتُب الجَاحظ ومُؤَلَّفاته، فالتَّوحيدي كما سَنَرى في سِياق هذه الدِّراسة عند الحديثِ عن الجَاحِظِيَّة، قد شُغِفَ بالجَاحظ وأُعْجَب به ونَقَلَ عنه، لهذا يُمْكِن القَوْلُ إنَّ كُتُبَ الجاحظِ تُعَدُّ مَصْدَراً من مصادرِ التَّوحيدي الأَدَبية والنَّقدية واللُّغوية الرَّئِيسة.

ومن مَصَادره الأُخْرى: النَّضْر بن شُمَيْل ت 203هـ، وما نَقَلَه عن الفَرَّاء ت 207هـ، وكذلك من مَصَادِره الكَامِل للمُبَرِّد ت 285هـ، فهو يُورِدُ عباراتِ المُبَرِّد ويَنْقِلُ عنه ويُشِيدُ به، وقد نَقَلَ عَنْ ابن المُعْتَزِّ ت 296هـ في أكثر من موضع، ونَقَلَ كذلك عن ثَعْلَب ت 291هـ، ومن مصادره نِفْطَوَيْهِ النَّحْوي ت 323هـ، ومنْ مَصَادره الأَدَبية أيضاً عَدَدٌ من دَواوين الشِّعر التي اطَّلَعَ عليها، وهكذا تَنَوَّعَت مَصَادِرُه اللُّغوية والأَدبية، وامْتَدَّت إلى بعض كُتُبِ النَّقد الأَدبي التي سبقته أو عاصرته.

***** 2- مصادِرُهُ من بعضِ كُتُب النَّقد الأدبي المُتَخَصِّصة:**

لم يكن التَّوحيدي بَعِيدَاً عمَّا يُثَارُ في كُتُبِ النَّقد الأَدَبي، بل كانَ على اطِّلاعٍ ومُتابعةٍ لِما يُكْتَبَ في النَّقد، إمَّا بِذِكْر عنوان الكتاب، أو بِتَحْلِيله وَوَصْفه، وإما بالنَّقْل منه، ومن أَهَمِّ كُتَّابِ النَّقد الأَدبي الذين تَابَعَهم التَّوحيدي ونَقَلَ عنهم (أَحْمَد بن أَبِي طاهِر طَيْفُور، والنَّاشِيء الأَكْبَر، وابن طَبَاطَبَا، وقُدَامَة بن جَعْفَر)، فقد ذَكَرَ كتاب (المَنْطُوم والمَنْثُور) لِأَحْمَد ابنِ أَبِي طَاهِر طَيْفُور ت 280هـ، ونَقَل عنه في بَعْضِ المَواضعِ المُخْتَلفة من كُتُبِه[1].

ومن مصادِرِهِ النَّقدية (أبو العَبَّاس النَّاشِيء ت 293هـ) أو النَّاشِيء الأَكْبَر، ويُعْرَفُ كذلك بِابنِ شَرْشِير، وكان نَحْوياً وعَرُوضِياً ومُتَكَلِّماً وشاعراً، قال التَّوحيدي مُشِيداً بالنَّاشِيءِ ومادحاً له، ومُوازِناً بَيْنَه وبينَ غَيْرِهِ منَ النُّقاد: (ومَا أَصَبْتُ أَحَداً تَكَلَّمَ في نَقْدِ الشِّعْر وتَرْصِيفِهِ، أَحْسَن مما أَتَى به النَّاشِئُ المُتَكَلِّم، وإِنَّ كَلامَهُ لَيَزِيدُ

(1) ينظر: الإمتاع والمؤانسة 2/ 55 والبصائر والذخائر 1/ 94، 4/ 150، والصداقة والصديق ص 153 وغيرها.

على كَلام قُدَامةَ وغَيْرِهِ، وله مَذْهَبٌ حُلْوٌ، وشِعْرٌ بَديعٌ، واحْتِفالٌ عَجيبٌ)[1]، والتَّوحيدي مُعْجَبٌ بالنَّاشِيءِ الكَبير أو الأَكْبَر، ويَذْكُر له بَعْضَ أشعاره أيضاً.

وفي الحَقِيقَة فإنَّ ثَمَّة خِلافاً شديداً حَوْل شَخْصية النَّاشِيءِ الأَكْبَر ونِتاجِه الأَدَبي أو النَّقْدي، فمَا ذَكَرَه التَّوحيدي عن النَّاشِيءِ يَخْتَلِف تَماماً عمَّا ذَكَرَه بعضُ مَنْ تَرْجَموا له وتَحَدَّثوا عنه، بِدايةً من المَرْزُباني ت 384هـ، الذي وَصَفَهُ بِأَنَّه شَديد الهَوَس، وأنَّ شِعْرَهُ قَلِيلُ الفَائِدَة[2]، وكذلك تَكَلَّم عنه يَاقُوتُ، حيثُ يَقولُ: (وقدْ قَرَأْتُ بَعْض كُتُبِهِ - أي النَّاشِيء -، فَدَلَّتْنِي عَلَى هَوَسِهِ واخْتِلاطِهِ، لأنَّه أَخَذَ نَفْسَه بالخِلافِ على أَهْلِ المَنْطِقِ والشِّعْر والعَرُوضيِّين وغَيْرهم، وَرَامَ أنْ يُحْدِثَ لِنَفْسِهِ أقْوالاً يَنْقُضُ بها ما هُمْ عليه)[3].

على كُلِّ حالٍ كان التَّوحيدي يُشِيدُ بالنَّاشِيءِ الأكبرِ ويَذْكُرُهُ ويَنْقِلُ مِن بَعْضِ كُتُبِه، فَقَد ذَكَرَ له كتاباً يُسَمَّى (نَقْدُ الشِّعْر)، وهو من الكُتُب التي لم تَصِلْنا، ونَقَلَ عنه بعضَ ما ذَكَرَه من مَقُولاتٍ وآراء نَقْدية، يقول التَّوحيدي: (قال النَّاشِئُ في كِتابِ نَقْدِ الشِّعْر، ومُخَاطَبَاتُ النِّساءِ تَحْلُو في الشِّعْرِ، وتَعْذُبُ في القَرِيضِ..)، وهذا مَبْدَأ نَقْدِيٌّ لا غُبَارَ عليه، لكنَّ النَّاشِيءَ يَسْتَطْرِدُ في ذِكْرِ أَوْصافٍ كثيرةٍ للنِّساءِ نَقَلها التَّوحيدي، وهذه الأَوْصَافُ رُغْم أَنَّها تُبْرِزُ بعضَ معاييرِ الجمالِ عند العَرَب، إلا أَنَّها أَثْقَلَتْ المَبْدَأَ النَّقْدِي وَأَفْقَدَتْه حَيَوِيَّته مِن خِلالِ ما فِيها مِن سَجْعٍ وَإِنْشَائِيَّة، فيقول مَثلاً: (لاسِيَّما لِغَانِيةٍ قَدْ أَطَرَ الفِتاءُ شَارِبَها، وزَوَى الإِباءُ حَاجِبَها.....)، وغَيْرها من أوصافٍ كَثِيرة ذَكَرَها للنساء، ويَبْدُو أنَّ التَّوحيدي كان مُعْجَباً بهذا الاسْتِطْراد أَكْثَر مِن إعجابِه بالقَاعدة النَّقْدية ذاتِها، إذْ لَمْ يُعَلِّق عَلَيْها وَلَم يَقِفْ على نَماذجَ تَطْبِيقية لها، ورُبَّما أَوْرَدَ النَّص الذي اقْتَبَسَه من كلامِ النَّاشِيءِ بِسَبَبِ هذا الاسْتِطرادِ الإِنْشَائي.

(1) البصائر والذخائر 5/ 109.

(2) تاريخ بغداد 10/ 92.

(3) معجم الأدباء 4/ 1548، وهذه العبارة نقلها ياقوت بنصها عن الخطيب البغدادي وإن لم يشر إلى ذلك، ينظر: تاريخ بغداد 10/ 92.

ومِمَّا نَقَلَه التَّوحيدي من كِتابات النَّاشِئِ الأَكْبَر قوله في أَغْرَاضِ الشِّعْر وأَنْواعه: (قَالَ النَّاشِيءُ أبو العبَّاسِ الكَبِير: أَوَّلُ الشِّعْرِ إنَّما يكونُ بُكاءً عَلَى دِمَنٍ، أو تَأَسُّفاً عَلَى زَمَنٍ، أو نُزُوعاً لِفِراقٍ، أو تَلَوُّعَاً لاشْتِياقٍ، أو تَطَلُّعاً لِتَلاقٍ، أو إعْذَاراً إلى سَفِيهٍ، أو تَغَمُّدَاً لِهَفْوَةٍ، أو تَنَصُّلاً مِنْ زِلَّةٍ، أو تَحْضِيضَاً عَلَى أَخْذٍ بِثَأْرٍ....)، وغيرها من أَغْرَاض نَقَلَها التَّوحيدي عنه، وأَوْرَد كذلك للنَّاشِيءِ أَقْوالاً في تَعْريفِ الشِّعْر وأَوْصَافه، يقول: (وقَالَ النَّاشِيءُ أبو العَبَّاسِ في نَقْدِ الشِّعْر: الشِّعْرُ قَيْدُ الكَلام، وعِقالُ الأَدَبِ، وسُورُ البَلاغةِ، ومَحَلُّ البَراعةِ، ومَجَالُ الجِنانِ، ومَسْرحُ البَيَانِ....)[1]، وخُلاصَةُ رَأْيِ التَّوحيدي في النَّاشيءِ المُتَكلم، هو أنَّه مِن أَفْضَلِ وأَحْسَنِ مَنْ تَكَلَّم في نَقْدِ الشِّعْر، إلاَّ أنَّ عَلَينا أنْ نَقِفَ على هذه العِبارةِ وذلك الرَّأْي، ونَسْتَنْتِج منها عِدَّة مُلاحظات:

1- إنَّ كُتُبَ النَّاشِيءِ المُتَكَلِّم لم تَصِلنا خاصة النَّقْدية منها، فلا نَسْتَطيعُ أَنْ نُشَارِكَ التَّوحيدي الرَّأْيَ أو نُخَالِفه فِيه، فَرُبَّما اطَّلَعَ أو وَقَفَ عَلَى بعضِ ما كُتِبَ فيها، وجَعَله يَصِلُ إلى هذا الحُكْم وتِلك القَناعةِ، وإنْ كانَ المَرْزُبانيُّ والخَطيبُ البَغْداديُّ وياقوتُ الحَمَويُّ في المقابل قَدْ اطَّلَعُوا هُمْ أيضاً عَلَى كُتُبِ النَّاشِيءِ - كَمَا مَرَّ بِنا -، ولم يُعْجَبُوا بها، ولَمْ يُثْنوا على نِتَاجِه الفِكْري أو الأَدَبي.

2- إنَّ عِبارةَ التَّوحيدي تَدُلُّ على أَنَّه اطَّلعَ عَلَى أَكْثَرِ كُتُبِ النَّقْد الأَدَبي التي وَصَلَتْه إلى عَصْرِه، مِمَّا جَعَلَه يُعَمِّمُ هذا الحُكْم، وهو تَعْمِيمٌ وإنْ كانَ يَتَّصِفُ بالمُبَالَغَةِ، إلاَّ أَنَّه يَدُلُّ مِن طَرَفٍ آخَر على اطِّلاعِ التَّوحيدي عَلى كُلِّ هذه الكُتُب أو أَكْثَرِها.

3- إنَّ التَّوحيدي قَد أَجْرَى ما يُشْبِهُ المُوَازَنَة بينَ ما طَرَحَهُ النَّاشِيءُ وبَيْن ما طَرَحَه قُدَامة وغَيْره، وتَبَيَّنَ له بَعْدَ هذه المُوزانَةِ - مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِه - أنَّ النَّاشِيءَ يَفُوقُ هؤلاء، وهذه المُوَازنةُ وإنْ كانت في المُطْلَق أو في المُجْمَل، إذْ لَمْ تَكُنْ مُوازنةً تَطْبِيقِيَّةً تَقْتَبِسُ وتُحلل وتُوازِنُ بَيْنَ قَوْلٍ وقَوْلٍ أو بَيْنَ رَأْيٍ ورَأْيٍ، إلاَّ أنَّ هذه

(1) البصائر والذخائر 9/ 25-26، 5/ 209، 219.

المُوَازَنةَ تَنُمُّ عن عَقْلِيةٍ نَقْديةٍ قادرةٍ عَلَى فَرْزِ ما يُكْتَب والتَّحَيُّز أو المَيْل إلى بَعْض الآراءِ والدِّفاعِ عنها.

4- وقَدْ كانت بعضُ العِباراتِ التي اسْتَشْهَدَ بها التَّوحيدي مِنْ أقْوالِ النَّاشِيءِ الأَكْبرِ، لا تُوَضِّحُ أيَّ جَهْدٍ نَقْدِيٍّ حَقِيقِي من جَانِبِ النَّاشِيءِ، خَاصَّةً وأنَّها عِباراتٌ ذاتَ طابَعٍ إِنْشَائِيٍّ بَيانِيٍّ، ولَيْسَت ذاتَ طابَعٍ إِجْرَائِي وتَطْبِيقِيٍّ وعِلْمي، ورُبَّما يكونُ هذا سِر إِعْجابِ التَّوحيدي بِمِثلِ هذه العِباراتِ التي اسْتَشْهَد بها، وكأَنَّما أَرَادَ التَّوحيدي أنَّ النَّاشِيءَ الأَكْبَرَ هو أَفْضلُ من عَبَّرَ عَن بَعْضِ القَضايا النَّقدية بِأسلوبٍ إِنْشَائِيٍّ أو بَيانيٍّ.

5- ومنَ الأَسبابِ التي دَفَعَتْ التَّوحيدي للإِعْجَابِ بالنَّاشِيءِ، هو إِلْمامُ النَّاشِيءِ بِعلومِ الفَلْسفةِ والمَنْطقِ والكَلامِ، وهذا ما وَضَحَ في مُناظَرةِ أَبِي سَعيد السَّيْرَافِيِّ معَ متَّى بن يُونس، عندما قال السَّيْرَافِيُّ لِمَتَّى إنَّ النَّاشيءَ قد رَدَّ على المَناطِقة، قال أبو سعيد فِيما ذَكَرَه التَّوحيدي: (وهذا النَّاشِيءُ أبو العَبَّاس قَدْ نَقَضَ عَلَيْكُم، وتَتَبعَ طَريقَتَكم، وبَيَّنَ خَطَأَكُم، وأَبْرَزَ ضَعْفَكُم ولم تَقْدِروا إلى اليَوْمِ أن تَرُدُّوا عَليه كَلِمةً واحدةً مما قال)[1].

6- إنَّ النَّماذِجَ الشِّعْرِيَّة التي ذَكَرَها التَّوْحيدي للنَّاشِيءِ تَدُلُّ بِشَكْلٍ غير مُباشرٍ على اقْتِرانِ إعْجابِ التَّوحيدي بِنَقْدِ النَّاشيء وبِشِعْرِه في آنٍ واحدٍ، وكأنَّ إعْجَابَه بِأَدَبِ النَّاشِيءِ وشِعْرِه كانَ مَدْخَلاً للإِعْجَاب بِنَقْدِه، أوْ مِنَ المُمْكِن أَنْ نَقولَ إنَّ التَّوحيدي كان مُعْجَباً بِلُغَةِ النَّاشِيءِ وَأُسْلُوبِهِ في الكِتَابَة النَّقْدية، أَكْثَر مِمَّا أُعْجَب بالأَفْكَارِ والمَبَادِيء النَّقْدِية التي طَرَحها.

وفي الحَقِيقَة فإنَّنا لا نُؤَيِّدُ التَّوحيدي في إعْجابِهِ غَيْرِ المُبَرَّرِ لِشِعْرِ النَّاشِيءِ أو لِعِبَاراتِه النَّقْدية، ونمِيلُ أَكْثَر إلى ما قَالَه المَرْزُبانِيُّ والخَطِيبُ البَغْدَاديُّ ويَاقوتُ فِيما مَرَّ مِن حَديثِهم حَوْلَ أَدَبِ النَّاشِيءِ وفِكْرِه، فَلَيس لِهذه العِباراتِ التي أَوْرَدَها

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 124.

التَّوحيدي قِيمةٌ نَقْدِية تُوَازِي مَا كان يُكْتَبُ في نَقْد الشِّعْر والأَدَب في عَصْر التَّوحيدي وقَبْل عَصْرِه، ولكنَّ أَهَمِّية ما ذَكَره التَّوحيدي عنه - غَير إِبْداءِ الإِعْجابِ بِهِ - هو أَنَّه أَطْلَعَنا على مَجْهُودٍ نَقْدِي لِبَعضِ الذين كَتَبُوا مِن الأَوائلِ في مَوْضوعاتٍ مُحَدَّدةٍ في النَّقْد، أو مَنْ وَسَمُوا كُتُبهم بعنوان (نَقْدِ الشِّعْر)، فالتَّوحيدي بِتلك العِباراتِ التي أَوْرَدَها للنَّاشِيءِ كانَ هُو المَصْدَر الوَحيد في إِبْرازِ هذه الإِشارةِ، يقولُ الدكتور إِحْسان عَبَّاس: (وَمَا كنَّا نَعْلمُ أَنَّ لَه مُشَاركَةً - أي النَّاشِيءِ - في النَّقْد، لَوْلا أَنَّ أَبا حيَّان التَّوحيدي وَصَفَه في كِتابِ البَصائِرِ والذَّخائِرِ بِالتَّفَوُّق في هذا المِضْمَار)[1].

والتَّوحيدي يُبْدِي إِعْجَابَه كذلك بابن طَبَاطَبَا العَلَويِّ ت 322هـ، ويَنْقِلُ عنه في مواضعَ مُخْتلفةٍ، خاصة من كِتابِهِ عِيار الشِّعْر، ولمْ يُعَلِّق التَّوحيدي على أَيٍّ مِمَّا نَقَلَه مِن كلامِ ابنِ طَبَاطَبَا، وإِنْ كانَ عَدَمُ تَعْليقِهِ يَعْنِي مُوافَقَتَه الضِّمْنِيَّة، وإِلاَّ لَكانَ عَلَّق أو عَقَّبَ مُخَالِفاً لابنِ طَبَاطَبَا، كما فَعَلَ فِي كَثيرٍ مِمَّا أَوْرَده مِن آراءٍ ونُقولٍ عن غَيْرِه، ومنْ مَصَادِرِه الأَدَبيةِ والنَّقْدية كذلك: قُدامةُ ابنُ جَعْفَر ت 337هـ، فَقَد مَدَحَه التَّوحيدي وأَشَادَ به، يقول: (ومَا رَأَيْتُ أَحَداً تَنَاهَى فِي وَصْفِ النَّثْر، بِجَميعِ ما فِيهِ وعَليهِ، غَيْرَ قُدَامَةَ بنِ جَعْفَر فِي المَنْزِلَةِ الثَّالثةِ مِن كِتابِهِ)[2]، ونَقَلَ عن قُدامةَ في بعضِ كُتُبِه.

وبَعْدَ أنْ اسْتَعْرضَنا العُلماءَ والشُّيوخَ والأُدباءَ والفَلاسفةَ الذين تَلَقَّى التَّوحيدي العِلْم علي أَيْديهم، وَلَزِمهم والْتَقَى بهم، وَوَقَفَنا كذلك عَلى أَهَمِّ مَصَادِره التي اعْتَمد عَلَيها مِن كُتُبِ الآخَرين، أَو مِمَّا سَمِعَه مُباشَرة وَرَواه ونَقَلَه عنهم، سَنلقي الضَّوءَ عَلى الثَّمرةِ والنِّتاجِ الذي ظَهَر نَتيجَةَ هذا التَّلَقِي وذلك الأَخْذِ والعَطاءِ، وهي كُتُب التَّوحيدي ومُؤَلَّفاتُهُ ورَسَائِلُه.

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص 63.

(2) الإمتاع والمؤانسة 2/ 145 - 146.

***** سابعاً: كُتُب التَّوحيدي ومؤلفاته:**

تَكَلَّم القُدامَى والمُحْدَثون عن كُتُبِ التَّوحيدي ومُؤَلَّفاته، وهناك مَا اتَّفَقُوا وما اخْتَلَفوا عَليه مِنْ أَسماءِ هذه الكُتُبِ وعَناوِينها، وهناك مَا وَصَلَ إلينا، وكذلك مَا لَمْ يَصِلْ من هَذهِ الكُتُب، ولأنَّ التَّوحيدي كانَ مَوْسُوعياً فَقَدْ تَعَدَّدت وتَنَوَّعت تَآلِيفُه وكُتُبُه، قال ياقوتُ في مُعْجَمه: (وكانَ مُتَفَنِّناً في جَميعِ العُلُومِ مِنْ النَّحْو، واللُّغة، والشِّعْر، والأَدَب، والفِقْه)، فعبارةُ ياقوت تُبَيِّن سَعَة المَوْضُوعاتِ والمَجالاتِ التي تَفَنَّن فيها التَّوحيدي.

ثم سَرَدَ ياقوتُ أَكْثرَ الكُتُبِ التي أَلَّفَها التَّوحيدي، فقال: (وَلِأبي حيَّان تَصانِيفُ كَثيرةٌ مِنْها: كِتابُ رِسالة الصَّدِيق والصَّداقَة، كتابُ الردِّ عَلَى ابنِ جِنِّي في شِعْرِ المُتَنَبِّي، كِتابُ الإمْتاعِ والمُؤَانَسَة جُزْءانِ، كِتابُ الإشَارات الإلِهيَّة جُزْءانِ، كِتابُ الزُّلْفَة جُزْءٌ، كِتابُ المُقابَسَة، كِتابُ رِياض العَارِفِين، كِتابُ تَقْرِيظ الجَاحِظ، كِتابُ ذَمّ الوَزِيرَيْنِ، كِتابُ الحَجّ العَقْلِي إذا ضَاقَ الفَضَاءُ عَنْ الحَجِّ الشَّرْعِي، كِتابُ الرِّسالة فِي صِلاتِ الفُقَهاءِ فِي المُناظَرَةِ، كِتابُ الرِّسالة البَغْدَادِيَّة، كِتابُ الرِّسالة في أَخْبارِ الصُّوفِيَّة، كِتابُ الرِّسالة الصُّوفِية أيضاً، كِتابُ الرِّسالة فِي الحَنينِ إلى الأَوْطانِ، كِتابُ البَصائِرِ وهُو عَشْرُ مُجَلَّداتٍ كُلُّ مُجَلَّدٍ لَه فَاتِحةٌ وخَاتمةٌ، كِتابُ المُحاضَرات والمُنَاظَرات)[1].

ولَعَلَّ مِنْ أَكْثرِ مَنْ تَكَلَّموا عن مُؤَلَّفات التَّوحيدي مِنَ القُدامَى وَذَكَر أَسْماءَ الكَثيرِ منها، بَلْ وَنَقَلَ منها، هو يَاقوتُ ت 626هـ فِي مُعْجَمِه، فَقائِمةُ مُؤَلَّفاتِ التَّوحيدي التي ذَكَرَها يَاقوتُ تُعَدُّ أَطْولَ وأَشْملَ القَوائِم التي ذُكِرَتْ لِمُؤلَّفاتِ التَّوحيدي في المَصادِرِ القَديمةِ، إلاَّ مَا كان مِنَ بعضِ أسماءِ الكُتُب التي لَمْ يَذْكُرْها ياقوتُ للتَّوحيدي، وذُكِرَتْ في مواضعَ أُخْرى سنشير إليها، لكنَّ المُلاحظ أنَّ أَكْثرَ مَنْ تَرْجَمَ للتَّوحيدي في القَدِيم قَد كَرَّرَ بَعْضَ أو كُلَّ ما ذَكَرَه ياقوتُ من هذه المُؤَلَّفاتِ، فَقَد ذَكَر ابنُ خَلِّكَان ت 681هـ بعض هذه الكتب، وذكر الذَّهَبِيُّ

(1) معجم الأدباء 5/ 1923- 1924.

ت 748هـ بعضها، وكذلك السُّبْكِيُّ ت 771هـ، وأعاد السُّيُوطِيُّ ت 911هـ بعضها[1].

وقَدْ وَصَلَنا عَدَدٌ من هَذه الكُتُب، وضَاعَ عَددٌ آخَرَ ولَمْ يَصِلْ إلينا، ورُبَّما يَكونُ سَببُ ضَياعِ عَددٍ من مُؤَلَّفاتِ التَّوحيدي هو إِحْراقُه لِبَعْض هذه الكُتُب، وهي قِصَّةٌ ذَكَرَها القُدامى والمُحْدَثون ومِنْهم ياقوتُ حيث قال: (وكانَ أبو حيَّان قَدْ أَحْرَقَ كُتُبَه في آخِرِ عُمْرِه، لِقِلَّة جَدْواها، وضَنًّا بِها عَلَى مَنْ لا يَعْرِفُ قَدْرَها بَعْدَ مَوْتِه)[2]، وكَرَّرَ كارل بُروكِلمان نَفْسَ المُبَرِّر، رَبَّما تَأَثُّراً بِعبارةِ ياقوت، فقال: (ويُقالُ: إِنَّه أَحْرَقَ جُزْءاً كَبيراً مِنْ كُتُبِه في آخِرِ عُمْرِه لِقِلَّةِ جَدْواها)[3]، وقد ذَكَرَ السُّيوطِيُّ في (بُغْيةِ الوُعاةِ) نَفْس القِصَّة لِحَرْق التَّوحيدي كُتُبه، ونَفْس المُبَرِّرات التي سَاقَها ياقوتُ، وعَقَّبَ السُّيوطِيُّ على هذه القِصَّة بِقَوْلِه: (فَلَعَلَّ النُّسَخَ المَوْجودةَ الآنَ مِن تَصانِيفِهِ كُتِبَتْ عَنهُ فِي حَياتِهِ، وخَرَجَتْ عَنْه قَبْلَ حَرْقِها)[4].

وكُتُبُ التَّوحيدي مُتَعَدِّدةٌ ومُتَنَوِّعةُ المَوضوعاتِ، وسَوفَ نُعَرِّفُ هنا بِإيجازٍ أَهَمَ كُتُبِ ومُؤَلَّفات التَّوحيدي التي وَصَلَتْنا وتَمَّ تَحْقيقُها ونَشْرُها، وسَوفَ نَقفُ أَيْضاً على بَعضِ هذه الكُتبِ التي لَمْ تَصِلْنا، وقد تَتَّصِلُ بِسَببٍ مُباشرٍ بالأدبِ ونَقْدِه، من خِلال ما قِيلَ عَنها فِي كُتبِ التَّراجِم، أو ما قَالَه التَّوحيدي نَفْسه حتى تَكْتمِل الصُّورةُ، وهذا سوف يساعدُ بلا شَكٍّ في رَصْدِ اتِّجاهاتِ النَّقْد الأَدبِي لَدَيه من خِلال كُتُبِه ومُؤَلَّفاته..

وسَوْفَ نَتحَدَّثُ عَنْ مُؤَلَّفاتِ التَّوحيدي مِن ثَلاثَةِ زوايا:

الأُولَى: هِي كُتُبُه التي حُقِّقَتْ وطُبِعَتْ ونُشِرَتْ وتَدَاوَلَها النَّاسُ.

والثَّانية: هِي كُتُبُه التي نُسِبَتْ إِليه وَلَيْسَت له.

---

(1) وفيات الأعيان 5/ 113، وسير أعلام النبلاء 12/ 548، وطبقات الشافعية الكبرى 5/ 287، بغية الوعاة 2/ 190.

(2) معجم الأدباء 5/ 1929.

(3) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان 4/ 335 – 336.

(4) بغية الوعاة 2/ 190.

والثَّالثة: هِي كُتُبُه التي لَمْ تَصِلْنا بَعْد.

***** 1-: كُتُبُ ومُؤَلَّفَات التَّوحيدي المُحَقَّقَة والمَطْبُوعة والمَنْشُورة:**

وسَوفَ نَذكُرُها مُرَتَّبة حَسَب الحُروفِ الهِجائِيَّة، وهِي كَما يَلِي:

*** «1» كِتابُ (أَخْلاَق الوَزِيرَيْن) أو (مَثَالِب الوَزيرَيْن) أو (ذَمّ الوَزِيرَيْن)، وقَد حُقِّقَ الكِتابُ ونُشِرَ بِاسْمَيْنِ مُخْتَلِفَيْن هما: (مَثالِبُ الوَزِيرَيْن) تَحقيقُ إبراهيم الكِيلانِي، و(أَخْلاقُ الوَزِيرَيْن) تَحقيقُ مُحَمَّد تَاويت الطَّنْجِي.

أمَّا عُنوانُ (ذَمُّ الوَزِيرَيْن) فَقَد ذَكَرَهُ ياقوتُ في مُعْجَمِه[1]، ويَاقوتُ لَمْ يَعْتَمِدْ عنواناً واحداً لهذا الكِتابِ، فهو يُسَمِّيه أحياناً (ذَمّ الوَزِيرَيْن) كَمَا أَشَرْنا، وأَحَياناً أُخْرَى أخلاق الوزيرين، وأَحْياناً أُخْرَى يَذْكُر الكِتابَ باسْم (كتاب الوَزِيرَين)، ومن المُؤَكَّد أنَّ هذه العُنْوانات الثَّلاثة أو الأَرْبَعة التي ذَكَرَها يَاقوتُ هي عُنْواناتٌ لِكتابٍ واحدٍ، والكِتابُ ذُو مَوْضوعٍ واحدٍ خَصَّصَه التَّوحيدي للحَديثِ عنْ مَساوِيءِ وَزِيرَيْن مِن أَشْهَر الوُزَراءِ فِي عَصْره، بَلْ وفي العَصْر العَبَّاسِي كُلِّه، وهُما أبو الفَضْل بن العَمِيد والصَّاحِب ابنُ عَبَّاد، يَقولُ ابنُ خَلِّكَان عن هذا الكِتاب: (وكانَ أبو حيَّان.. قَد وَضَعَ كِتاباً سَمَّاه مَثالِب الوَزِيرَيْن، ضَمَّنَهُ مَعَايِبَ أَبي الفَضْل ابنِ العَميدِ المَذْكور والصَّاحِبِ بنِ عَبَّاد، وتَحَامَلَ عليهما، وعَدَّدَ نَقَائِصَهُما، وسَلَبَهُما ما اشْتُهِر عَنهما مِن الفَضائِلِ والإِفْضَال، وبَالَغَ في التَّعْصُّبِ عليهما، وما أَنْصَفَهُما..)[2]، وإنْ كانَ هُناك مِن المُحْدَثين[3] مَنْ يُؤَكِّد عَلى أنَّ الوَزيرَ الذي قَصَدَه التَّوحيدي في كِتابه (أَخْلاق الوَزِيرَيْن) هو أَبو الفَتْح بنُ العَميد الإِبْن، وليس أبو الفضل بن العَميد الأَبُ.

وعلى الرُّغْم من مُبالَغَةِ التَّوحيدي في انْتِقاصِ هذين الوَزيرَيْن في هذا الكِتابِ، وثَلْبِ كُلِّ ما لهما مِن فَضائِلِ، إلاَّ أنَّ الكتابَ يُعَدُّ بِحَق نَصَّاً فَريداً في

(1) معجم الأدباء 5/ 1925.

(2) وفيات الأعيان لابن خلكان 5/ 112 - 113.

(3) ينظر: أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي ص 44.

(الهِجاءِ النَّثْري)، وَأَظْهَرَ فيه التَّوحيدي - كما قال الدكتور زكريا إبراهيم -: (بَراعَةً كُبْرَى في فَنِّ التَّصْويرِ النَّقْدِي، فَكانَ في الطَّلِيعةِ بَيْنَ أَصْحابِ الأَقْلامِ السَّاخِرَةِ من رِجالاتِ الأَدَبِ الهَزْلِي)[1]، والكِتابُ بِقَدْر ما يَحْوِي نَوعاً من النَّقْد الاجْتماعي والشَّخصي والهِجاءِ الشَّديد والمُبالغِ فيه لابنِ العَميدِ وللصَّاحِبِ بن عبَّاد، إلا أَنَّه في الوقتِ ذاتِه يَحْتَوي عَلى إِشَاراتٍ ونَظَراتٍ بَالغةِ الدِّقَةِ في النَّقْد الأَدَبي تَخُصُّ ابن العَمِيد وابن عبَّاد، لاسِيَّما وَأَنَّهما مِن الكُتَّاب والأُدَباء، وسوفَ نتَعَرضُ لهذه النَّظراتِ والآراءِ النَّقديةِ في سِياقِ هذه الدِّراسة.

*** «2» كتابُ (الإِشارات الإِلَهِيَّة)، وقَدْ حَظِي الكِتابُ بِتَحْقِيقَيْن فِي العَصْر الحَديث، تحقيقُ الدكتور عبد الرحمن بَدَوي، وصدر عام 1950م، وتَحقيقُ الدكتورة وِداد القَاضي وصدر عام 1973م[2].

وكِتابُ الإِشارات الإِلهيَّة للتَّوحيدي هو كِتابٌ ذُو مَوضوعٍ خَاص، وأُسْلوبٍ شَديدِ الخُصُوصِيَّة كذلك، بلْ وطريقةٍ مُغايرةٍ تَماماً لِما انْتَهَجَه التَّوحيدي فِي مُجْمَل كُتُبِه، فكِتابُ الإِشارات نَسِيجُ وَحْدِهِ، فَثَمَّة مَوضوعٌ مُتَماسِكٌ مِن أَوَّلِ الكِتابِ إلى آخِرِه، وصَوْتُ التَّوحيدي وَحْدَه هو المَسْموع، بلْ والمُشَاهَد فِي سِياقِ الكِتابِ وعَبْر سُطُورِه، فلا أَخْبارَ ولا مَرْوِيَّات ولا رُواة ولا ذِكْر لِأقوالِ عُلماء آخَرين إلاَّ في القَليلِ النَّادر، فالكِتابُ مُنَاجَاةٌ صُوفِيةٌ وأَدْعِيةٌ مُتَضَرِّعةٌ وَرَسائلُ هَامِسةٌ، تَارةً يُناجِي فِيها التَّوحيدي رَبَّه، وتَارةً أُخْرى يُخاطِبُ شَخْصاً مُوَجِّهاً له النُّصْح.

وقد أَشَارَ ياقوتُ إلى الكِتابِ وعُنوانِه، وذَكَر أَنَّه مُكَوَّن من جُزْئَين لِكِنَّه لَمْ يَنْقِل منه، ربَّما لأنَّ الكتابَ مُخْتَلف، لَيْس فيه مَرْوِيَّات ولا أَخْبار تَهِم كُتُبَ التَّراجم والتَّاريخ، وحتَّى مَا وَصَلَنا مِن هَذا الكِتابِ لَمْ يَصِلْنا كَامِلاً كما أَشَارَتْ الدكتورة وداد القاضي مُحَقِّقةُ الكِتابِ[3]، ويُعَدُّ كِتابُ (الإِشَارات الإِلهيَّة) فِي نَظَر البَعْض

(1) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء للدكتور زكريا إبراهيم ص 268.

(2) اعتمدنا على تحقيق الدكتورة وداد القاضي لأن فيه نصوصاً زائدة لم ترد في تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي.

(3) ينظر: مقدمة تحقيق الإشارات الإلهية ص 11.

(مِنْ أَهَمِّ إبداعاتِ أبي حيَّان التَّوحيدي، وهو خُلاصةُ تَجْربةٍ صُوفيَّةٍ مَرَّ بها بَعْدَ مَرْحلةِ الشُّعورِ باليَأْسِ والزُّهْد في الدُّنيا، وبَعْدَ الفَشَل في نَوالِ المَكانَةِ التي يَسْتَحِقُّها بينَ أَقْرانِهِ، بوصْفِه واحداً منْ أَهَمِّ مُفَكِّري القَرْن الرَّابع الهِجري الأَفْذاذ ومِنْ أَهَمِّ أُدَبائه)[1].

***«3» كِتابُ (الإمْتاع والمُؤَانَسة): وقد حَقَّقَ الكِتابَ الأُسْتاذان: أَحْمد أَمِين وأَحْمد الزَّين، وطُبِعت في لَجْنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر بالقاهرة، الأَجْزاءُ الثَّلاثة عام 1953م ثم طُبِعَ في بيروت عام 1966م، إضافةً إلى عَدَد من الطَّبَعات التُّجارِيَّة غَيرِ المُحَقَّقة المُتَداوَلة في بعضِ المَكتباتِ، وقدْ احْتَفَى ياقوتُ بهذا الكتابِ حتى أَنَّه كانَ يَصِفُ التَّوحيدي (بِصاحِبِ الإمْتاعِ)؛ فَقَد ذَكَر الكِتابَ في مُعْجَمه وَنَقَلَ عنه نُصُوصاً مُخْتَلِفة، بلْ إنَّ كِتابَ الإمْتاعِ وَالمُؤَانَسةِ كان مَصْدراً مُعْتَمَداً لِكَثيرٍ مِن تَراجمِ يَاقوت، وكانَ المَصدرَ الوَحيدَ لِتَرْجَمةِ بعضِ الشَّخصياتِ.

والكِتابُ ذُو مَوضوعاتٍ مُتَعَدِّدةٍ وفُنونٍ مُتَنَوِّعةٍ، وهُوَ أَشْبَهُ بِكُتُبِ المَجَالِس، حَيثُ سَرَدَ فيه التَّوحيدي ما كان يَدورُ في مَجْلِس الوَزِير (أَبِي عبد اللهِ العَارِضِ) الذي أَكَّد الأُستاذُ أحمد أمين في مُقَدِّمَة تَحْقِيقِه أَنَّه هُو الوَزيرُ بنُ سَعْدان ت 375هـ، وزيرُ الخَليفةِ صِمْصَام الدَّوْلة البُوَيْهِيِّ، وقدْ أَهْدَى التَّوحيدي هذا الكِتابَ لِصَديقِهِ أَبِي الوَفاءِ المُهَنْدِس ت 376هـ، والكِتابُ مُقَسَّمٌ إلى لَيالٍ، يَذْكُر فيها التَّوحيدي ما يَدورُ في كُلِّ لَيلَةٍ مِن أَسْئِلةِ الوَزيرِ لَه وأَجْوِبة التَّوحيدي عَليها.

وفي الحَقيقةِ فَقَد صَدَقَ وَصْفُ الأُستاذِ أحمد أمين لِلكِتابِ بأَنَّ مَوْضُوعاته (مُتَنَوِّعة تَنَوُّعاً ظَريفاً لا تَخْضَعُ لِتَرْتيبٍ ولا تَبْويبٍ، إنَّما يَخْضَعُ لِخَطَراتِ العَقْلِ وطَيرانِ الخَيالِ وشُجُونِ الحَديثِ، حتى لَنَجِدَ في الكِتابِ مَسائِلَ مِن كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ...)[2]، ولمْ يَكنْ التَّوحيدي في الإمْتاعِ والمُؤَانَسةِ يَقْتَصِر على وَصْفِ ما دَارَ في مَجْلِس الوَزيرِ ابنِ سَعْدان فَحَسْب، بلْ جَرَى عَلَى وَصْفِ عَدَدٍ من مَجَالِسِ بَغْداد،

(1) الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي دراسة لغوية، أطروحة لنيل درجة الدكتوارة ص 2.

(2) مقدمة تحقيق الإمتاع والمؤانسة ص س.

وما كانَ يَدُورُ فيها مِن حِواراتٍ ومُناظراتٍ، ولمْ يَكْتَفِ كذلك بِوَصْفِ بَعْضِ المَجالسِ وما كانَ يَدورُ فيها، بلْ تَطَرَّقَ إلى وَصْفِ الحَياةِ السِّياسِيَّة والاجْتماعِيَّة في بَغْداد خَاصَّة والعِراق عَامَّة، وما كان يَمُوجُ بها مِن أَحْداثٍ ومَذاهِبَ وأَفْكارٍ وتَيَّاراتٍ.. ولم تَكُنْ قَضايا الأَدبِ واللُّغةِ والبَلاغةِ والنَّقْدِ بِمَعْزِلٍ عن هذه القَضايا والمَوضوعاتِ التي طَرَحَها التَّوحيدي في الإمتاعِ والمُؤانَسَةِ، بلْ كانت مَبْثُوثَةً فِي سِياقِ كِتابِهِ وعَبْرَ صَفَحاتِه، فَلِلتَّوحيدي في هذا الكِتابِ وَقَفاتٌ أَدبيةٌ ونَقْديةٌ ولُغَويةٌ عَميقَةٌ سَوفَ نتعرض لها في سِياقِ هذه الدِّراسةِ عِندَ الحَديثِ عن اتِّجاهاتِ النَّقد الأَدبي لَدَيْهِ.

*** «4» كتابُ (البَصَائِر والذَّخَائِر): وقَدْ حَظِيَ الكِتابُ بِأَرْبَعةِ تَحْقِيقاتٍ وهي: تَحقيقُ الأُسْتاذَيْن أَحمد أمين وأَحمد الزَّين، وأَصْدَرَته لَجْنةُ التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر بالقاهرة 1953م، وتَحقيقُ الدكتور عبد الرزَّاق مُحي الدِّين، وصَدَر الجُزءُ الأَوَّلُ في بَغداد 1953م، وتَحْقيقُ الدكتور إبراهيم الكِيلاني، وصَدَرَتْ مِنه نَشْرَةٌ كامِلةٌ بِدمشق 1966م، وتَحْقِيقُ الدكتورة وِداد القَاضي، وصدر عام 1988م، وقدْ اعْتَمَدنا على هذا التَّحقِيق لِأَنَّه الأَحْدثُ والأَشْمَلُ لِكُلِّ الأَجزاءِ التي ظَهَرَتْ من مَخْطُوطاتِ الكِتابِ.

وقد أَثْبَتَتْ الدكتورةُ وِداد القَاضي أنَّ كِتابَ البَصائِر والذَّخَائِر حَظِيَ بِأَكْثَرَ مِن اسْمٍ وعُنوانٍ تَمَّ تَداوُلُه في الكُتُبِ القَديمةِ، وهي كُلُّها عُنْواناتٌ لِنَفْسِ الكِتابِ؛ ومِنها: (بَصائِر الحُكَماءِ وذَخائِر القُدَماءِ) و(البَصَائِر والنَّوادر) أو (النَّوادِر والبَصَائر) و(بَصَائِر القُدماءِ وسَرائِر الحُكماءِ) و(بَصائِرِ القُدماءِ وبَشائِر الحُكماءِ)[1]، يُضافُ إلى ما ذَكَرَتْهُ الدكتورة القاضي، ما ذَكَرَهُ ياقوتُ مِن اسْمٍ له وهو (كتاب النَّظائِر)، قال ياقوتُ: (وقَالَ أبو حيَّان في كِتابِ النَّظَائِر)[2]، والذي يَبْدو أَنَّه كِتابُ البَصَائِر والذَّخَائِر، وقد حَدَثَ تَحْريفٌ أو خَطَأٌ في كِتابةِ الاسْمِ عند ياقوت في هذا

(1) دراسة في كتاب البصائر والذخائر لمحققة الكتاب 9/ 230 - 231.

(2) معجم الأدباء 1/ 279.

المَوضعِ؛ لأنَّ كَلمةَ النَّظائِر لَم تَرِدْ في قَائمةِ الكُتُبِ التي ذَكَرَها ياقوتُ نَفْسُه للتَّوحيدي، ولمْ يَذْكُرها في غيرِ هذا المَوْضِع.

وطَبيعةُ كِتابِ (البَصَائِر والذَّخائِر) قَائِمةٌ على الأَخْبارِ والمَرْوِّياتِ التي تَأْخُذ مِساحةً كَبيرةً بَل كَامِلِ مِساحَةِ الكِتابِ، وهي أَخْبارٌ مُنَوَّعةٌ وغَيرُ مُرْتَبطةٍ، ولا مُنْتَظِمةٍ تحت عُنوانٍ مُعَيَّن، أو مَوْضوعٍ مُحَدَّدٍ في كَثيرٍ منَ الأَحْيانِ، والتَّوحيدي يُبَيِّنُ ويُوضِّحُ مَنْهَجَه في الجَمْعِ مِن كُلِّ فَنٍّ، يقول: (وذلك بَيِّنٌ عِنْد تَصَفُّحِ ما تَضَمَّن هذا الكِتابُ؛ فَإنَّكَ معَ النَّشاطِ والحِرْصِ سَتُشْرِفُ على رِياضِ الأَدبِ، وقَرائِحِ العُقولِ، مِن لَفْظٍ مَصُونٍ، وكَلامٍ شَريفٍ، ونَثْرٍ مَقْبولٍ، ونَظْمٍ لَطيفٍ، ومَثَلٍ سَائِرٍ، وبَلاغَةٍ مُخْتارَةٍ، وخُطْبةٍ مُحَبَّرَةٍ...، ونَادِرةٍ مُلْهِيةٍ..، وهَزْلٍ شِيبَ بِجِدٍّ، وجِدٍّ عُجِنَ بِهَزْل...)[1].

وأكثرُ مَصادرِ هذه الأَخْبارِ والمَرْوياتِ هي ما ذُكِرَتْ في كُتُبٍ سابقةٍ، وقدْ حَدَّدَها التَّوحيدي في مُقَدِّمة كِتابِهِ، وبعضُ هذه الأَخبارِ هِي مِمَّا انْفَرَدَ به عَن طَريقِ المُعَاينةِ والمُشاهَدَةِ والسَّماعِ، وما يُمَيِّز التَّوحيدي في هذا الكتابِ أَنَّه ذَكَر كَثيراً مِنَ الأُدباءِ والشُّعراءِ والكُتَّابِ المُعاصرين له، لَكِنَّهم من المَغْمُورين الذين لا يَعْرِفهم أَحَدٌ، ولا تَهْتَمُّ بهم كُتُبُ التَّراجِم، هذا بالإِضافةِ إلى كَثيرٍ مِنَ الوَقَفاتِ والآراءِ والنَّظراتِ الأَدَبيةِ والنَّقدية التي ضَمَّنَها التَّوحيدي كِتابَه وَسَنقفُ عليها في مَواضِعِها من الدِّراسَة.

*** «5» (ثَلاثُ رَسائِلَ لأبي حيَّان التَّوحيدي) وهي رِسالةُ السَّقِيفةِ، ورِسالةٌ في عِلْمِ الكِتابةِ، ورِسالةُ الحَياةِ، تَحقيقُ الدكتور إبراهيم الكِيلانِيُّ، مَنْشوراتُ المَعهدِ الفِرنسيِّ بدمشق 1951م، وبِتَحْليلِ مَضْمونِ الرَّسائِلِ الثَّلاثةِ سَنَجِدُ أَنَّ الرِّسالةَ الأُولَى وهي (رِسالةُ السَّقِيفةِ) تَتَكَلَّم عن الحِوارِ الذي دَارَ بَيْنَ (أبي بَكْر الصِّديقِ) رضي الله عنه، ومَعَهُ (عُمَر بنُ الخَطَّابِ) رضي الله عنه، وبَيْنَ (عَلِيِّ بن أبي طَالب) رضي الله عنه، والذي

(1) البصائر والذخائر 1/ 3.

نَقَلَ هذا الحِوارَ هو (أبو عُبَيْدَة بن الجَرَّاح) رضي الله عنه، ثم ذِكْرِ ما كانَ مِنْ رَدِّ عَلِيٍّ، وما كانَ مِن مُبَايَعَتِه لأبي بَكْر رضي الله عنهم أَجْمَعين.

فَرِسالةُ السَّقيفةِ لَيْسَت رِسالةً مَكْتوبةً بَيْنَ أبي بكرٍ وعَلِيٍّ، بلْ هي حِوارٌ شَفَوِيٌّ نَقَلَه أبو عُبَيْدة بينهما، وقَدْ شَكَّكَ البعضُ في نِسْبَةِ هذا الكَلامِ إلى أَبي بَكْرٍ وإلى عَلِيٍّ رضي الله عنهما وأَرْضَاهما، وكانَ مِن أَوائِلِ المُشَكِّكِين ابنُ أبي الحَديدِ ت 656هـ[1]، وقد ذَكَرَها النُّوَيْرِيُّ ت 733هـ في نَهايةِ الأَرَبِ وَرَواها كَامِلةً[2]، وطَرَحَ ما ثَارَ حَوْلَها مِن شُكوكٍ، ومِمَّن أَشَارَ إليها وَلَمْ يَنْشُرْها الذَّهَبِيُّ ت 748هـ في مِيزانِ الاعْتدالِ، حيثُ رَوَى على لِسانِ التَّوحيدي نَفْسِه ما يُؤَكِّد وَضْعَها وانْتِحالَها[3]، وكذلك أَوْرَدَها القَلْقَشَنْدِيُّ ت 821هـ في صُبْحِ الأَعْشَى ورَواها كَاملةً[4]، وإنْ لَمْ يُشَكِّك في نِسْبَتِها، أو في صِحَّةِ مَضْمونِها.

وفي العَصْرِ الحَديثِ نَشَرَ حَسَن السَّنْدوبيُّ رِسالةَ السَّقيفةِ كَاملةً في مُقَدِّمةِ تَحْقيقِه لِكتابِ المُقَابساتِ، وقَدْ شَكَّكَ السَّنْدوبِيُّ في هذه الرِّسالةِ، وذَهَبَ إلى أَنَّها مِن تَأْليفِ أو وَضْعِ التَّوحيدي[5]، وقَدْ أَيَّدَ السَّنْدوبِيُّ كَلامَه بِما ذَكَرَه ابنُ أبي الحَديدِ فيما سَبَق الإشارةَ إليه.

والمُلْفِتُ أَنَّ الدكتور إبراهيم الكِيلانِي مُحَقِّق الرِّسالةِ ونَاشِرُها ضِمْنَ الرَّسائِلِ الثَّلاثةِ للتَّوحيدي، لَمْ يَتَطَرَّق إلى مَا أُثِيرَ حَوْلَ رِسالةِ السَّقيفَةِ أو ما ذُكِرَ حَوْلَها فِي أَيٍّ مِن الكُتبِ القَديمةِ أو الحَديثةِ، واكْتَفَى بِأَنْ قالَ إنَّها (تُمَثِّلُ جَانبَ النِّضالِ بَينَ السُّنَّةِ والشِّيعَةِ فِي عَصْرِ بَنِي بُوَيْهِ)[6]، ثمَّ أشارَ بِشَكْلٍ غَيرِ مُباشِرٍ إلى أنَّ التَّوحيدي

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10/ 285 – 286.

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري 7/ 214 حتى 229.

(3) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي 4/ 518.

(4) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي 1/ 237 – 247.

(5) مقدمة تحقيق المقابسات ص 40.

(6) مقدمة تحقيق ثلاثة رسائل للتوحيدي ص 8م.

هو مَنْ أَلَّفَ وَوَضَعَ هذه الرِّسالةَ، فَقالَ إنَّه أَلَّفَها بِسَبَبِ عَامِلَيْن:

الأَوَّلُ: هو النِّزاعُ والصِّراعُ المَذْهبِيُّ بَيْنَ السُّنةِ والشِّيعَةِ.

والثَّاني: هو عَدَاءُ وكَراهِيةُ التَّوحيدي لِلوَزِيرَيْن ابنِ العَميدِ وابنِ عبَّاد اللَّذان كانا مِن أَكابِرِ الشِّيعَةِ في هذا العَصْر.

أمَّا الرِّسالةُ الثَّانِيةُ مِن ضِمْنِ الرَّسائِلِ الثَّلاثَةِ فهي (رِسالَةٌ فِي عِلْم الكِتابةِ) والتي تُعَدُّ ثَمَرَة خِبْرَة التَّوحيدي في الكِتابَةِ والوِراقَةِ والنَّسْخ والخُطُوطِ، وقَدْ اكْتَسَبَ كُلَّ ذلك منْ مِهْنَة الوِراقَةِ التي زَاوَلَها فَتْرَةً طَويلَةً، حيثُ تَحَدَّث التَّوحيدي في هذه الرِّسالةِ عن فَنِّ الكِتابةِ من نَاحِيةِ المَهارَةِ الكِتابِيَّةِ والخَطِّية وليْسَ النَّاحية الأَدَبِيَّة والبَلاغِيَّة، فقَدْ تَطَرَّق إلى فُنُونِ الخَطِّ العَرَبيِّ في عَصْرِه، وَتَحَدَّث عن أَنواعِ الخُطوطِ الشَّائِعةِ، ما كان منها قَديماً أو مُسْتَحْدَثاً، وتَحَدَّث عن الأَقْلامِ وأَنْواعِها، وكَيفِيَّة بَرْيِها..، وهو في تَنَاوُلِه هذا خَبيرٌ بِصَنْعةِ الكِتابَةِ من نَاحِيَتَيْن نَظَريَّة وتَجْرِيبِيَّة، وهذه الرِّسالةُ منَ الرَّسائِلِ أو الكُتُبِ المُبَكِّرةِ التي تَعاطَتْ مع فَنِّ الكِتابةِ مِن زاويةِ الخُطوطِ والحُروفِ وكُلِّ ما يَتَعَلَّق بهما.

أمَّا الرِّسالةُ الثَّالثةُ: وعُنوانُها (رِسالةُ الحَياةِ) فهي رِسالَةٌ فَلْسَفيَّةٌ مختصرة، وسَببُ تَسْمِيةِ الرِّسالةِ بهذا الاسْم - كما يفهم مِنْ تَحْليلِ مَضْمونِها - هو ما وَرَدَ في أَوَّلِها، حيثُ يقولُ التَّوحيدي: (جَرَتْ أَدامَ اللهُ رُوحَ قَلْبِك، وبَرَّدَ فُؤَادَك، مُذاكَرَةٌ في البَيَانِ مِن أَصْنافِ الحَياةِ، التي هي مَحْبُوبةُ كُلِّ نَفْسٍ..)، ثُمَّ قال بعد ذلك: (وَأَعودُ فَأَقُولُ في شَرْحِ أَصْنافِ الحَياةِ، بِمَبْلَغِ العِلْمِ الذي عِنْدِي، فَإِذا فَرَغْتُ مِنه أَضَفْتُ إلى جُمْلَتِهِ فِقَراً شَريفَةً، بِعباراتٍ مَأْلوفَةٍ، على قَدْرِ الرِّسالةِ..)[1]، ثم مَضَى التَّوحيدي يُعَدِّدُ ويَذْكُرُ أَصْنافَ الحياةِ، حيثُ جَعَلَها عَشْرَة أَصْنافٍ، فَمِن المُؤَكَّد أنَّ هذا المَنْحَى منَ التَّوحيدي في هذه الرِّسالةِ هو سَببُ تَسْمِيتها باسْمِ (رِسالة الحَياةِ)، وبالعُمومِ فهي رِسالَةٌ فَلْسفيَّةٌ تُشْبِه الكَثيرَ ممَّا طَرَحَه التَّوحيدي في كِتابِهِ (المُقابَسات) الذي يَميلُ فِيه إلى الفَلْسَفَة مَمْزوجاً بالفِكْر الصُّوفِيِّ.

(1) رسالة الحياة ضمن ثلاثة رسائل للتوحيدي ص 52، ص 54.

*** «6» كتابُ (الصَّداقَة والصَّديق)، وقَدْ نُشِرَ مَرَّات: كانَ أَوَّلها ضِمْن نَشْرَةٍ بِعُنوانِ (رِسالتان للعَلاَّمَةِ الشَّهيرِ أبي حيَّان التَّوحيدي: الرِّسالةُ الأُولَى في الصَّداقَة والصَّديقِ، والرِّسالةُ الثَّانيةُ في العُلوم)، نَشَرَهما: أحمد فَارس الشِّدْيَاق، بمَطْبَعةِ الجَوائِب بِالقُسْطَنْطِينية الطبعة الأولى 1301هـ/ 1884م، ونَشْرَةٌ مُنْفَرِدةٌ تَحتَ عُنوانِ (رِسالةُ الصَّداقَةِ والصَّديق للتَّوحيدي) تَحقيق إبْراهيم الكِيلانِي، طُبِعَتْ بدمشق 1964م، بالإضافة إلى طبعات أخرى حديثة.

وقد ذَكَرَ الكِتابَ واسْمَه أَكْثَر مَنْ تَرْجموا للتَّوحيدي في القَديم والحَديثِ، بِدايةً مِن يَاقوت الحَمَوي في مُعْجَمه، وإنْ كانَ بَعْضُهم ومِنْهم ياقوتُ قَدْ عَكَس عُنوانَ الكِتابِ؛ فقالوا: (الصَّديقُ والصَّداقة)، على الرُّغْم مِنْ أَنَّ التَّوحيدي نَفْسَه نَصَّ على اسْمِ الرِّسالةِ في مُقَدِّمتها باسْمِ الصَّداقَة والصَّديق[1].

ولِكِتابِ الصَّداقَة والصَّديق قِصَّةٌ حَكَاها التَّوحيدي في مُقَدِّمَتِه، وفَحْواها أَنَّ التَّوحيدي كانَ قَدْ ذَكَرَ طَرَفاً من هذا الكِتابِ لِزَيدِ بنِ رِفَاعَة - مِن إِخْوانِ الصَّفا -، وأَنَّ زَيداً قَدْ نَقَلَ بَعْضَها لِلوَزيرِ بنِ سَعْدان الذي مَرَّ ذِكْرُه والحَديثُ عنه، وذلك قَبْلَ أَنْ يَتَوَلَّى الوِزارَةَ، فَطَلَبَ ابنُ سَعدان مِنَ التَّوحيدي أَنْ يُدَوِّنَ له الكِتابَ، وكان ذلك بالتَّحديد عام 371هـ، لَكِنَّ ابنَ سَعْدان بَعْدَها يَتَوَلَّى الوِزارةَ ويَنْشَغِلُ بها، ثُم تَمُرُّ السَّنوات حتى عام 400هـ بَعْد أَنْ قُتِلَ ابنُ سَعْدان، فَيَعْثُر التَّوحيدي على مُسَوَّدَةِ الكِتابِ فَيُبَيِّضُها.

والكِتابُ ذُو مَوضُوعٍ وَاحِدٍ حَشَدَ له التَّوحيدي مِن الأَخْبارِ والمَرْوِيَّاتِ والأَحاديثِ والأَشْعارِ والآثَارِ والحِكَم والأَمْثالِ، ما يُعَزِّز به كُلَّ الأَفكارِ التي تَحُومُ حَوْلَ الصَّداقَةِ والصَّديقِ، فهو كِتابٌ أَدبيٌّ اجْتِماعيٌّ ونَفْسِيٌّ أيضاً، والكِتابُ وإنْ كانَ ذا مَوْضوعٍ واحِدٍ لكِنْ يُلاحَظُ عَليه عَدَمُ التَّبويبِ أوْ التَّنظِيم، فَمُهِمَّة الجَمْع والانْتِقاءِ تُسَيْطِر على التَّوحيدي أَكْثَر من غيرها، مَع ما يُوجَدُ من بَعْضِ الآراءِ الخَاصَّة

(1) رسالة الصداقة والصديق ضمن رسالتين للتوحيدي ص 6، والصداقة والصديق تحقيق الكيلاني ص 35.

بالتَّوحيدي، التي يُعْلِنُ فيها عن وِجْهَة نَظَرِه المُوافِقَة أو المُخَالِفة.

*** «7» كتابُ (المُقابَسَات)، وقَدْ نُشِرَ مَرَّتَيْن: الأولى من تَحْقيقُ حَسَن السَّنْدُوبي، وطُبِعَ بِالمَطْبَعة الرَّحْمانِيَّة بِمصر عام 1929، والثانية نَشْرَةُ محمد تَوفيق حُسين، بِبغداد عام 1970م.

واسْمُ الكِتابِ وعُنْوانُه وَاضِحٌ لاشَكَّ فيه، فَهُو (المُقابَسَات) بِصِيغَةِ الجَمْعِ، إلاَّ أَنَّ ياقوتَ ذَكَرَه بِصِيغَةِ المُفْرَد، فقال: (المُقَابَسة)[1]، والفَيْصَلُ في تَحْديدِ الاسْمِ هو التَّوحيدي نَفْسُه، فهو يُقَسِّمُ الكِتابَ إلى عَدَدٍ مِنَ المُقَابَساتِ، حتى يَصِلَ إلى المُقابَسَةِ السَّادِسَةِ بَعْد المائةِ، وقد أَشَارَ التَّوحيدي إلى العُنوانِ بِصيغَةِ الجَمْعِ في سِياقِ كِتابِهِ أَكْثرَ مِن مَرَّة، ويُشيرُ في نِهايةِ الكِتابِ إلى أنَّ المُقابَساتِ قَد تَمَّتْ، وكُلُّ ذلك يُؤَكِّد أنَّ الكِتابَ بِعنوانِ المُقابَساتِ ولَيْس المُقابَسة.

وكِتابُ (المُقابَسَات) تَسْجيلٌ وتَوْثيقٌ لِما كانَ يَدورُ في أَكْثَرِ مَجالِسِ بغدادَ العِلْميةِ والأَدبيةِ والفَلْسفيةِ، خَاصَّة ما كانَ يَدورُ في مَجْلِس (أبي سُلَيْمان السِّجِسْتَانِيِّ المَنْطِقِي) شَيْخ التَّوحيدي وأُسْتاذه، وَأَكْثَر مَوْضوعاتِ الكِتابِ فَلْسَفِية وكَلامِيَّة ونَفْسِية وصُوفِية، وفي سِياقِ هذه القَضايا والمَوْضوعاتِ تَأْتِي المَباحِثُ اللُّغويةُ والأَدَبيةُ والنَّقديةُ مَبْثُوثَةً في صَفحاتِ الكِتابِ.

*** «8» كتابُ (الهَوامِل والشَّوامِل): والكتابُ تَأْليفٌ مُشْتركٌ للتَّوحيدي مَعَ مِسْكَويه، وقد حَقَّقَه أحمد أمين وأحمد صَقْر، ونَشَرَتْه لَجْنةُ التَّأليفِ والتَّرجمةِ والنَّشر بالقاهرة 1951م، وطُبِعَ طَبْعَةً حَديثةً مِن الهَيْئَةِ العَامَّة لِقُصور الثَّقافة عام 2001م سلسلة الذَّخائِر، حيثُ أُعِيدَ طَبْعُ ما حَقَّقه أحمد أمين وأحمد صقر، وقَدْ جَعَلَ المُحَقِّقان تَأْليفَ الكِتابِ للتَّوحيدي ومِسْكَوَيْه معاً ولَيْس لأحدهما مُنْفَرِداً، وطُبِعَ طَبْعَة أُخْرَى في بيروت عام 2001م من تَحْقِيق سَيِّد كِسْرَوي، حيثُ أَضَافَ المُحَقِّقُ في طَبْعَتِه إلى العُنْوانِ عِبارَة أُخْرى، فكان العنوان: (الهَوامِلُ والشَّوامِلُ سُؤالاتُ أَبي حيَّان التَّوحيدي لأَبي عَلِيٍّ مِسْكَوَيْه)، وهي إضَافة رُبَّما تَكُونُ تَوْضِيحِيَّة

(1) معجم الأدباء 5/ 1925.

من المُحَقِّق، لكِنَّها لَيْسَت مُثْبَتَةً في عُنوانِ الكِتابِ كما أَشَارَت كُلُّ المَصادِرِ القَديمةِ والحَديثَةِ على السَّواءِ، والغَريبُ في أَمْرِ هذه الطَّبعةِ من كِتابِ الهَوامِل والشَّوامِل أنَّ المُحَقِّقَ قَد جَعَلَ تَأليفَ الكِتابِ لأبي عَلِي مِسْكَوَيْه ولَيس للتَّوحيدي وَحْده، أو لَهُما مُجْتَمِعَيْن كما فَعَلَ الأُستاذان أمين وصقر!!.

والتَّوحيدي هو الذي سَمَّى الكِتابَ بهذا الاسْم ولَيسَ مِسْكَوَيْه، وهذا ما يَتَّضِحُ من قَولِ مِسْكَوَيْه في الرَّدِّ على التَّوحيدي: (وهَأَنَذا آخِذٌ في أَجْوِبَةِ مَسائِلِك، التي سَمَّيْتَها الهَوامِل)[1]، فَمِن الوَاضِح بَلْ مِن المُؤَكَّد أنَّ أَسْئِلةَ التَّوحيدي هي (الهَوامِلُ) وأنَّ أَجْوبةَ مِسْكَوَيْه هي (الشَّوامِلُ)، ومن المُؤَكَّد أيضاً أنَّ التَّوحيدي هو الذي أَطْلَقَ هذا العُنوانَ على ذلك الكِتابِ، وذلك وَاضِحٌ من النَّصِ السَّابق الذي ذَكَرَه مِسْكَوَيْه في الرَّدِّ على التَّوحيدي، ولهذا لَمْ يَكُن ثَمَّة دَاعٍ أو مُبَرِّر لِتَساؤُلِ الدكتور الحُوفي عن (مَنْ الذي سَمَّى الكِتابَ؟، أَأَبو حيَّان هو الذي سَمَّاهُ؟، أَمْ ابنُ مِسْكَوَيْه هو الذي سَمَّاهُ؟)، ثم يُجيبُ الدكتور الحُوفي على تَساؤُلِه، ويقول: (أُرَجِّح أنَّ أبا حيَّان هو الذي اخْتارَ اسْمَ الكِتابِ)[2]، والأَمْرُ لا يَحْتاجُ إلى طَرْحِ هذا التَّساؤُلِ، ولا إلى تَرْجيحِ الإجابةِ عنه، لأنَّ العِبارَةَ التي ذَكَرَها التَّوحيدي في رَدِّ مِسْكَوَيْه عليه، دَليلٌ قاطِعٌ على أنَّ التَّوحيدي هو الذي سَمَّى الكِتابَ بهذا الاسْم.

لكنَّ المُلْفِتَ أنَّ التَّوحيدي لَمْ يَذْكُر سَبَبَ تَسْمِيةِ الكِتابِ بهذا الاسْم، وهو اسْمٌ فَريدٌ من نَوْعِه في أَسْماءِ الكُتُبِ والمُؤَلَّفاتِ، ورُبَّما تَفَرَّد به التَّوحيدي ولَمْ يُشَارِكْه أَحَدٌ في نَفْسِ العُنوانِ، وبَقِيَ سَبَبُ تَسْميةِ الكِتابِ بهذا الاسْم مَحَلَّ جَدَلٍ لدى بَعْضِ الباحثين، بِدايةً من الأُستاذ أحمد أمين مُحَقِّق كِتاب الهَوامِل والشَّوامِل، الذي أَكَّدَ أنَّ (مَعْنَى الهَوامِل: الإبِل السَّائِمة يُهْمِلُها صَاحِبُها ويَتْرُكُها تَرْعَى، والشَّوامِل: الحَيوانَاتُ التي تَضْبِطُ الإبِلَ الهَوامِلَ فَتَجْمَعها، وقدْ اسْتَعارَ أبو حيَّان

(1) الهوامل والشوامل للتوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر ص 3.

(2) أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي 1/ 21.

كَلِمةَ الهَوامِلِ لِأَسْئِلَتِه المُبَعْثَرَةِ التي تَنْتَظِرُ الجَوابَ، واسْتَعْملَ مِسْكَوَيْهِ كَلِمةَ الشَّوامِلَ في الإجَاباتِ التي أَجَابَ بها فَضَبَطَتْ هَوامِلَ أبي حيَّان)[1].

لكنَّ الدكتور الحُوفِي لمْ يَرْتَضِ هذا التَّأويلَ، وخَالفَ الأُسْتاذَيْن أمين وصقر، وافْتَرَضَ افْتراضاتٍ لِمَعْنَى الهَوامِلِ ومَعْنى الشَّوامِلِ، فَذَكَر أنَّ الهوامِلَ قد تَعْنِي المَطَر المُتَوالِي، ولهذا فَإنَّ المُرادَ - حَسْبَ الدكتور الحوفي - هو (الأَسْئِلةُ المُنْطَلِقةُ المُتواليَةُ المُوَجَّهةُ إلى ابنِ مِسْكَوَيْه، كأَنَّها المَطَرُ النَّازلُ المِدْرارُ) ومَضَى يَفْتَرِضُ مثل ذلك في مَعْنَى الشَّوامِلِ، التي قد تَكونُ بِمَعْنَى العُمومِ والشُّمُوليةِ، أو بِمَعْنى اسْمٍ من أَسماءِ الرِّيحِ وهي رِيحُ الشَّمالِ، فَكَأَنَّها (الأَجْوِبةُ الشَّامِلةُ المُحيطةُ المُسْتَوعِبةُ)، أو كَأَنَّها (نَسَماتُ الشَّمالِ الهَابَّة على بِلادِ العَربِ من نَاحِيةِ الشَّام)[2].

وفي الحقيقةِ فقَدْ جَانَبَ الدكتور الحُوفي الصَّواب في افْتِراضِ هذه الافْتِراضاتِ التي قَدْ لا يَقومُ بَعْضُها دليلاً على تَسْميةِ الكِتابِ بهذا الاسْمِ، خاصَّة نَسماتُ الشَّمالِ الهَابَّة على بلادِ العَربِ من ناحِيةِ الشَّام!! فالمُتَأَملُ لِكتاباتِ التَّوحيدي وأُسلوبِهِ في الكِتابةِ وفي صِياغَةِ عناوين كُتُبِه، سَيَجِدُ أنَّ افْتراضَ الأُسْتاذَيْن أمين وصقر لمْ يَكُنْ بَعيداً عن رُوحِ العَناوين التي تُمَثِّلُ بعضَ كُتُبِ التَّوحيدي، والتي يَميلُ فيها إلى اسْتِخدامِ كَلِمتَيْن مَعْطُوفتين بَيْنَهما حَرْفُ العَطْف الوَاو، مِثْل (البَصائِر والذَّخائِر) أو (الإشارات الإلهيَّة والأَنْفاس الرَّوْحَانية) أو (الإمْتاع والمُؤَانَسة)، ويَميلُ إلى أنْ يَرْبُط بَيْنَ الكَلِمَتين رَابِطٌ فيه مَعْنَى التَّكامُلِ والتَّعاضُدِ، وكَأَنَّ الكَلِمتَيْن تَحْتاجُ فيهما الأُولَى إلى الثَّانيةِ أو الثَّانيةُ إلى الأُولى، مِثل الذَّخائِرُ التي تَحْتاجُ إلى بَصائِر تَصِلُ إليها وتُدْرِكها، ومِثل الأَنْفاسُ الرَّوحانِيَّة التي تَحْتاجُ إلى إشاراتٍ إلهيَّةٍ تَهْديها وتُلْهِمها، والمُؤَانَسَةُ تَجْلُبُ الإمْتاعَ، ولا يَحْدُثُ الإمْتاعُ إلا بِالمُؤانَسَةِ، فَهكذا الهَوامِلُ (الإبِلُ السَّائِمة) تَحْتاجُ إلى شَوامِلَ (إبِل ضَابِطَة) لِكَي تُعِيدُها وتَجْمَعُها، إضافَةً إلى أَنَّ افْتِراضَ الأُسْتاذَيْن أمين وصقر مُنْتَزَعٌ

(1) مقدمة تحقيق الهوامل والشوامل لأحمد أمين ص: ج.

(2) أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي 1/ 20 - 21.

مِنَ البِيئةِ العَربيةِ التي خَبَرَها التَّوحيدي وعَرَفَها، وسَجَّل الكَثيرَ مما يَدورُ فيها.

ومنَ الحَقِّ ما قَاله الأُسْتاذان أمين وصقر في اعْتِبارِ هذا الكتابِ كَأَنَّه كِتابانِ لِمُؤَلِّفَيْنِ كَبيرَيْنِ، ومنَ الحَقِّ أَيضاً ما أَشَارَ إليه الدكتور زكريا إبراهيم مِنْ أَنَّ قِيمةَ الكِتابِ لا تَنْحَصِرُ (فيما انْطَوَى عليه مِن إجاباتٍ، بَلْ تَنْحَصِرُ قِيمَتُه أولاً وبالذَّات فِيما انْطَوَتْ عَليه أَسْئِلَتُه مِن إشْكالاتٍ، وعَلَى الرُّغْم مِن أنَّ مِسْكَوَيْه قَدْ أَسْهَمَ في تَأْليفِ هذا الكِتابِ بِقِسْطٍ أَكْبَرَ مما أَسْهَمَ به أبو حيَّان، إلا أنَّ بَعْضَ أَسْئِلةِ التَّوحيدي قَدْ تَفوقُ في عُمْقِها ودِقَّتِها إجاباتِ مِسْكَوَيْه)[1]، ولهذا اسْتَطاعَ أبو حيَّان في هذا الكِتابِ - كما هو في كَثيرٍ مِن كُتُبه - أَنْ يُظْهِرَ عَقْلِيةً مَوْسوعيةً شَامِلةً، تَقِفُ وتَأْخُذُ من كُلِّ فَنٍّ بِطَرَفٍ، فَمِن قضايا فَلْسَفيةٍ وكَلاميةٍ إلى قضايا لُغَويةٍ وأَدَبيةٍ وأُخْرى اجْتماعِيَّةٍ ونَفْسيةٍ وتَاريخيةٍ وجَمالِيةٍ...

وقد ذَكَرَ التَّوحيدي اسْمَ هذا الكِتابَ في سِياقِ كِتابِه (المُقَابَسات)[2]، ممَّا يَعْنِي أنَّ كِتابَ الهَوامِل جَاءَ قَبْلَ كِتابِ المُقابَسَات، وأنه يمثل المرحلة الأولى من مراحل التكوين العلمي والثقافي للتوحيدي، لكنَّ المُلْفِتَ بَلْ والغريبَ أنَّ ياقوتَ الذي ذَكَرَ أَكْبَرَ قائمةٍ كُتُبٍ للتَّوحيدي ونَقَلَ الكَثيرَ عن بَعْضِها، لَمْ يُشِرْ مُطْلَقاً إلى اسْم كِتابِ (الهَوامِل والشَّوامِل)، لا فِي تَرْجَمةِ التَّوحيدي ولا في تَرْجَمةِ مِسْكَوَيْه، خاصة وأَنَّ ما كَتَبَه ياقوتُ يُعَدُّ أَوْفَى وَأَشْمَل تَرْجمةٍ للتَّوحيدي في كُتُبِ التَّراجِم القَديمةِ، مِن خِلالِ ذِكْرِه لِكُلِّ كُتُبِ التَّوحيدي تَقْريباً بَلْ ونَقْلِه مِنْها فِي مَواضِعَ كَثِيرةٍ، وهذا ما جَعَلَنا نَطْرحُ التَّساؤُلَ: لِماذا لَمْ يُشِرْ إلى هذا الكِتابِ رُغْمَ أَهَمِّيتِهِ؟، ورُغْم وُجودِ مُؤَلِّفَيْن كَبيرَيْن لِلكتابِ؟، ونُرَجِّحُ أنَّ ياقوتَ لَمْ يَطَّلِعْ على كِتابِ الهَوامِلِ والشَّوامِل، أو لَمْ يَصِلْ إليه خَبَرُه، وإلا كان قَدْ ذَكَرَه في ترجمةِ أحدهما، فلا يُعْقَلُ أنْ يَصِلَ إليه خَبَرُ الكِتابِ فَيُهْمِلُه أو يَتَجاهَله عَلَى أَهَمِّيته واشْتراكِ اثْنَينِ منَ المُفَكِّرين في كِتابَتِه.

(1) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء للدكتور زكريا إبراهيم ص 121 - 122.

(2) المقابسات ص 146.

**** «9» الرِّسالةُ البَغْدادِيَّةُ: ويُعَدُّ أَوَّلُ مَنْ تَنَبَّه لهذه الرِّسالةِ، وقَام بِتَحْقِيقِها وطَبْعِها عام 1902م هو (آدم مِتْز)، وكان آدم مِتز قَدْ نَشَرَها تحتَ عُنوانِ (حِكايةُ أبي القاسِمِ البَغْدادِيِّ لِمحمدِ بنِ أحمدَ أَبِي المُطَهَّر الأَزْدِي)، ثمَّ حَقَّقَها عبُّود الشَّالْجِي في طَبعةٍ حَديثةٍ نُشِرتْ في كولونيا بألمانيا عام 1997م ناسِباً إيَّاها إلى التَّوحيدي.

وعَلَى الرُّغْم مِنْ أنَّ الرِّسالةَ تَخْلو مِن اسْمِ التَّوحيدي، حيثُ اسْتَخْدمَ لها اسْمَيْن مُسْتَعَارَيْن كَرَاويةٍ للرِّسالةِ، وهما (أبو المُطَهَّرِ مُحمد بن أَحمد الأَزْدِي) و(أبو القَاسِم أحمد بن عَلِي التَّمِيمِي البَغْدَادِي)، وهي أَسْماءٌ مُصْطنعَةٌ ظَاهرةُ الاصْطِناعِ، إلا أَنَّ الرِّسالةَ مِن تَأليفِ التَّوحيدي، وقَدْ دَلَّل على ذلك عَبُّود الشَّالجي مُحَقِّق الرِّسالة بِعِدَّةِ دَلائِلِ منها تَشَابه أُسْلوبُها الكِتابيِّ مَع أُسلوبِ وطَرِيقَةِ التَّوحيدي، ومنها وُرودُ بعضِ النَّصوصِ مِنَ الرِّسالةِ البَغداديةِ في كُتُبِ التَّوحيدي الأُخْرى مِثل الإمتاعِ والمُؤَانَسة والبَصائِر والذَّخائر[1]، ويبدو أنَّ السَّبَبَ في كِنايَةِ التَّوحيدي عن اسْمِه باسْمٍ مُصْطَنع هو كَثْرَةُ ما ورد فيها من ألفاظ نابية تؤذي قارئها أو سامعها، ونضيف إلى ما ذَكَره المُحَقِّقُ من تأكيد نسبة الرسالة للتوحيدي أنَّ ياقوتَ قد ذَكَر الرِّسالةَ البَغْدادية في مُعْجَمِه مَنْسوبَةً إلى التَّوحيدي وإنْ لَمْ يَنْقِلْ منها، وأَشَار إليها الصَّفَدِيُّ في الوَافِي بالوَفَيات نَقْلاً عن ياقوت[2].

والتَّوحيدي في هذه الرِّسالةِ مُتَفَرِّدٌ أو مُخْتَلفٌ في مَنْهَجِيَّة الكِتابةِ أو في أُسْلُوبِها، فالرِّسالةُ أَشْبَه بالمَقاماتِ وإنْ لَمْ يُصَرِّح التَّوحيدي بذلك، والمُتَأَمِّل لِطريقةِ التَّوحيدي في الرِّسالةِ سَيَجِدُ أنَّه قدْ قَصَدَ وَضْعها مُحاكِيةً لِفَنِّ المَقاماتِ، حتى أنَّ هناك بعضَ السُّطورِ من رِسالتِهِ تلك مَأْخوذة مِن مَقاماتِ بَديعِ الزَّمانِ الهَمَذانِيِّ، فالرِّسالةُ قَد صِيغَتْ في شَكْلِ أو في قَالبٍ قَصَصيٍّ، حيثُ يَحْكِي عن رَجُلٍ بَغْداديٍّ وهو (أبو المُطَهَّر الأَزْدِي) أو (أبو القَاسِم التَّمِيمِي) الذي ذَهَبَ إلى أَصْفَهان، وهو

(1) مقدمة تحقيق الرسالة البغدادية ص 9.

(2) معجم الأدباء 5/ 1925، والوافي بالوفيات 22/ 27 – 28.

يَمْتَهِن الكُدْيَة وسُؤالَ النَّاسِ في البُيوتِ والشَّوارعِ، ومن الغَريبِ أنَّ الرَّاوي - الذي هو التَّوحيدي - قَدْ جَعَلَ زَمنَ الحِكايةِ يَوماً ولَيْلَة.

وقد أَخَذَ التَّوحيدي يَسْرِد فيها الحِكايةَ بِكُلِّ تَفاصِيلِها، ثمَّ أَخَذَ يُقارنُ بَيْنَ المَدِينَتَيْن بَغداد وأَصْفَهان، راسِماً لَوحاتٍ مُتَنَوِّعة لبغدادَ، وواصِفاً بِدقَّةٍ كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِحركةِ الحَياةِ فيها بِدايةً من طِيبِ الهواءِ وعَاداتِ المَلْبسِ والمَأْكلِ والمَشْربِ للبَغْداديين، ومُشيراً في شَكْلٍ تَسْجيليٍّ وتَوثيقيٍّ فَريدٍ إلى أَسْماءِ وأَنواعِ المَلابسِ وكذلك الأَطْعمةِ والأَشْربةِ والفَواكهِ، وما يَحْدُثُ في المُناسباتِ المُختلفةِ، ويَصِفُ مَجالسَ بَغداد وما يَموجُ فيها من تَرَفٍ ومُتَعٍ، حتَّى أَنَّه يَسْتَخدمُ المَنْهج الإِحْصائِي ويَقُومُ هو وجَماعةٌ من الكَرْخِ بإِحْصاءِ عَدَدِ المُغَنِّياتِ والمُغَنِّين في بَغْداد على عَهْدِه؛ فَوَصَلوا إلى 360 مُغَنِّياً ومُغَنِّية، وكذلك عَدَد الجَواري والغِلْمان، وسَوفَ نَأْتي على تَحْليلِ هذه الرِّسالةِ، من حيثُ لُغَتِها وأُسْلوبِها، وما تَتَضَمَّنه مِن مَوضوعاتٍ في سِياقِ فُصولِ هذه الدِّراسةِ.

***«10» رسالةُ العُلوم: وقد نُشِرَتْ الرِّسالةُ ضِمْنَ نَشْرَةٍ بِعُنوان (رِسالتَان للعَلاَّمة الشَّهيرِ أبي حيَّان التَّوحيدي: الرِّسالةُ الأُولى في الصَّداقةِ والصَّديقِ، والرِّسالةُ الثَّانيةُ في العُلوم)، نَشَرَهما: أَحمد فارس الشِّدْياق، بِمطبعةِ الجوائب بالقُسْطَنْطينية الطبعة الأولى 1301هـ/ 1884م، وهي رِسالةٌ مُخْتصرةٌ وَضَّحَ التَّوحيدي في أَوَّلها سَبَبَ كِتابَتِها، وهي أنَّ أَحدَهم قدْ عابَ المَنْطِق وهَاجَمَه؛ فاحْتاجَ إلى الرَدِّ عليه وتَفْنيدِ مَزاعِمِه، ثم قال مُؤَكِّداً أنَّه يَقْصُد الإيجازَ والاخْتصارَ في هذه الرِّسالةِ: (وسَأُبَيِّنُ أَصْنافَ العِلْمِ في هذا المَوْضِعِ على وَجْهِ الإِيجازِ، فإنَّ اسْتِقْصاءَها لا تَحْويهِ هذه الرِّسالةُ، ولا يَتَّسِع له هذا الوَقْتُ..)[1].

وبَيَّنَ التَّوحيدي أنَّ هناك عُلماءَ وأُدباءَ كثيرين سَبَقوه في الحَديثِ عن العُلومِ وصُنوفِها، ثم مَضَى يَتَحَدَّث بإيجازٍ شَديدٍ عن أَهَمِّ هذه العُلوم مِن وِجْهَةِ نَظَرِهِ، بِدايةً من الفِقْه، ثمَّ السُّنَّة، ثمَّ القِياس، ثمَّ عِلْم الكَلامِ، ثمَّ النَّحو، ثمَّ اللُّغة، ثمَّ

(1) رسالة العلوم ص 201- 202.

المَنْطِق، ثمَّ النَّظَر في النُّجُوم، ثمَّ النَّظَر في الحِسابِ والعَدَد، ثمَّ النَّظَر في الهَنْدَسةِ، ثم النَّظَر في البَلاغَةِ، ثمَّ خَتَمَ الحَديثَ عن أَصْنافِ العُلومِ بالتَّصَوُّفِ.

ومِنَ الوَاضِحِ الإِيجازُ الشَّديد في مَضْمونِ الرِّسالةِ، وعَدَم التَّطَرقِ إلى كُلِّ العُلومِ والمَعارفِ حتى عَصْرِه، فهناك مِن العُلومِ التي كانت مُزْدَهِرة ولَمْ يَأْتِ على ذِكْرِها، ومنَ الواضحِ كذلك - بالإِضافَةِ إلى الإِيجازِ - عَدَم وُجُود تَنْسِيقٍ أو تَنْظِيم أو تَبْويبٍ مَقصودٍ يَرْبطُ هذه العُلومَ بِرباطٍ ما، فالعُلومُ اللُّغويةُ والبَلاغِيةُ مُتداخِلةٌ مع العُلومِ الرِّياضيَّةِ والحِسابِيَّةِ ومَعَ عُلومِ الفَلْسَفةِ والمَنْطِق، بِدونِ تَنظيمٍ واضِحٍ أو مَنْهَجيةٍ مُحَدَّدة تُفَسِّر هذا التَرْتيبَ.

***** 2-: الكتابُ الذي نُسِبَ إليه وليس له:**

وهو كتابٌ بِعُنوان: (الهَفَواتُ لابنِ الصَّابِي)، حيث اعْتَبَرَ الدكتور أحمد الحُوفي أنَّ هذا الكِتابَ منَ الكُتبِ التي ذَكَرَها ياقوتُ مِن مُؤَلَّفاتِ التَّوحيدي، يقول الدكتور الحُوفيُّ مُتَحَدثاً عن بَعْضِ كُتُب التَّوحيدي التي لَمْ تَصِلْنا، وإِنْ بَقِيَتْ منها مُقْتَبَساتٍ في كُتُبٍ أُخرى: (الهَفَواتُ لابنِ الصَّابِي، يُريدُ الصَّاحِب بن عبَّاد، ذَكَرَهُ يَاقوتُ ونَقَلَ مِنه، وأَغْلَبُ الظَّنِ أَنَّه هو مَثالِبُ الوَزِيرَيْن، أو الجُزْء الخَاص مِنه بابن عبَّاد)[1]، وقد تَابَعَ الدكتور زكريا إبراهيم الدكتور الحوفي فِيما ذَهَبَ إليه بِشَأْنِ هذا الكِتابِ وأنَّه مِن تَأْليفِ التَّوحيدي، ونميل إلى أنَّ الدكتور زكريا قَدْ نَقَلَ هذا الكلامَ من الدكتور الحوفي أو عَلَى الأَقَلِّ تَأَثَّر به[2]، وقَدْ تَابَعَ باحثٌ آخَرٌ ما قاله الدكتور الحوفي ونَقَلَ حَرْفِيًّا ما ذَكَرَه عن هذا الكِتابِ[3] مُعْتَبِراً أنَّ (الهَفَوَات لابنِ الصَّابِي) هو من كُتُبِ التَّوحيدي التي ذَكَرَها ياقوتُ، وبالنَّظرِ إلى ما كَتَبَه ياقوتُ من أسماءِ مُؤلفاتِ التَّوحيدي سَنَجِدُ أنَّها سَبْعةَ عَشر كِتاباً لا ثَمانيةَ عشر، وليس مِن بَينها الهَفَوات لابنِ الصَّابي، وفي الحَقيقةِ فإِنَّ هذا سَهْوٌ من الدكتورين الحوفي وزكريا

(1) أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي 2/ 10.

(2) ينظر: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء للدكتور زكريا إبراهيم ص 100.

(3) أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء لأحمد عبد الهادي ص 156.

إبراهيم ومَنْ تَابَعَهما؛ لأنَّ ياقوتَ لمْ يُدْرِجْ هذا الكِتابَ ضِمنَ مُؤلَّفاتِ التَّوحيدي، ولمْ يَذْكُر في أيِّ مَوْضِع من مَواضِع مُعْجَمه أنَّ كِتابَ الهَفَوات هو للتَّوحيدي، وهذا يَدْفَعنا للتَّساؤلِ: هَل يُوجَدُ كِتابٌ بهذا العُنوان: (الهَفَوات لابنِ الصَّابي)؟، وإذا كانَ مَوْجُوداً فَمَنْ مُؤَلِّفه وكَاتبه؟

إنَّ الإجابةَ عن هذا التَّساؤلِ هي عِندَ ياقوت نَفْسِه، فقد ذَكَرَ ياقوتُ مِراراً اسْمَ كِتاب (الهَفَوات) وكذلك اسْمَ مُؤَلِّف الكِتاب وهو (غَرْسُ النِّعْمة أبو الحَسَن مُحَمَّد بن هِلال بن المُحْسِن الصَّابِيء)، وغَرْسُ النِّعْمة ابن الصَّابي أو ابن الصَابِيء ت 480هـ هو كَاتِبٌ ومُؤَرِّخ وله سِوى كِتابِ الهَفَوات النَّادِرة، كِتابُ الوُزراء، وكِتابُ التَّاريخ الطَّويل، وربَّما الذي أَوْجَدَ هذا الالْتِباس في نِسْبَة الكِتابِ للتَّوحيدي، أنَّ ياقوتَ ذَكَر على لِسانِ غَرْس النِّعْمة ابن الصَّابِيء ما قَالَه في كِتابِه الهَفَوات نَقْلاً عن التَّوحيدي نَفْسِه، يقولُ ياقوت: (وفي كِتابِ الهَفَوات لابنِ الصَّابِيءِ: وحَكَى أبو حيَّان قال: حَضَرْتُ مَائِدةَ الصَّاحِب ابن عبَّاد..)[1]، وما زَادَ الالْتِباس أنَّ هذه العِبارَةَ قَريبةٌ مِمَّا قَالَه ياقوتُ عن أَسماءِ مُؤَلَّفات التَّوحيدي، فربَّما فَهِمَ البَعْضُ أنَّ كِتابَ الهَفَوات للتَّوحيدي أيضاً.

***** 3-: كُتُبُ التَّوحيدي التي لم تَصِلْنا:**

وسوف نُقَسِّم هذه الكُتُبَ إلى قسمين:

الأَوَّل: ما يَتَعَلَّق بِموضوعاتٍ مُخْتلفةٍ فَلْسفِيةٍ وفِكْريةٍ عَامةٍ.

والثَّاني: ما يَتَعَلَّق بالأدبِ ونَقْدِه.

أمَّا القِسمُ الأَوَّل الذي يَتَعَلَّق بالمَوْضوعاتِ المُخْتلفة، فَمِن هذه الكُتُب: كتابُ (مُحاضَرات العُلماءِ)، وهذا الكِتابُ لَمْ يَصِلْنا، لكنَّ ياقوتَ أَشارَ إليه أَكْثَر مِنْ مَرَّةٍ ونَقَل منه، وأحياناً يُسَمِّيه ياقوتُ كِتابَ (المُحاضرات) وأحياناً يُسَمِّيه كتابَ

(1) معجم الأدباء 5/ 1925.

(المُحاضَرات والمُناظَرات)[1]، والكِتابُ حَسَب النَّصوصِ التي أَوْرَدَها ونَقَلَها ياقوتُ عنه، هو كِتابٌ أَدَبِي إخْبَاري، يُشْبِه كِتابَه (البَصائِر والذَّخائِر) وكتاب (الإمتاع والمُؤَانسة) في أنَّه يَسُوقُ الأَخبارَ والرِّواياتِ والأَحاديثَ، إلا أنَّه خَصَّصَها في كِتابِه هذا عَلى ما كانَ يَدورُ في مَجالِسِ العُلماءِ والأُدباءِ.

كتابُ (الزُّلْفَة): وقدْ نَقَلَ منه مِسْكَوَيْه مُعاصِرُ التَّوحيدي وصَديقُه في كِتابِهِ (تَجارُب الأُمَم)[2]، وكِتابُ الزُّلْفَة غَير مَعروفِ المَوْضُوع، ولهذا يُرَجِّحُ الدكتور الحُوفي أنَّه في التَّصَوُّف أو الزُّهْدِ أو ما يَتَّصِلُ بهما[3]، بُناءً على ما وَرَدَ من نَموذِجٍ منه في كِتابِ مِسْكَوَيْه، ويُؤَيِّد ذلك دِلالةُ عُنوانِ الكِتابِ نَفْسِه، فكلمةُ (الزُّلْفَة) تَعْنِي في اللُّغةِ مِن ضِمْن ما تَعْني: الدَّرَجَة والمَنْزِلة والقُرْب، فالاسْمُ وما يُثِيرُه من دِلالاتٍ قَريبٌ من اهْتماماتِ التَّوحيدي بالصُّوفيَّة سَواءً على المُسْتَوى النَّظَري أو المَسْلَكي، فَمِنَ المُحْتملِ أنْ يَدورَ كِتابُ الزُّلْفَة المَفْقود في دَائِرةِ كِتابِ الإشاراتِ الإلهيَّةِ.

وقدْ ذَكَرَ ياقوتُ اسْمَ الكِتابِ مرةً واحدةً في ثَبَتِ مُؤَلَّفات التَّوحيدي، ولَكِنَّه لم يَنْقِل منه، ولمْ يَذْكُره غير هذه المَرَّة، وذَكَره الصَّفَديُّ في الوَافِي بالوَفَيات أيضاً، ورُبَّما يَكونُ سَببُ عَدَم نَقْل ياقوت منه هو اخْتلافُهُ عن طَبيعةِ كُتُبِ الأَخبارِ والرِّواياتِ، أو مَا يَتَعَلَّق بالنَّاسِ والأَشْخاصِ كَباقي كُتُبِ التَّوحيدي التي نَقَلَ منها ياقوتُ.

(الرِّسالةُ في صِلاتِ الفُقهاءِ في المُناظَرةِ): والرِّسالة لم تَحْظَ إلا بِتدوينِ اسْمِها في كُتُبِ التَّراجِمِ القَديمةِ، بدايةً من مُعْجم الأدباءِ، الذي لم يَذْكُرها مَرةً أُخْرى ولم يَنْقِلْ عنها، ومروراً بالوافِي بالوَفَيات، وذَكَرَها كذلك أَكْثَر مَنْ تَكَلَّم عن التَّوحيدي من المُحْدَثين، ولمْ يَتَعَرَّف أَحَدٌ من القُدامى أو المُحْدثين على مَضْمونِ

(1) معجم الأدباء 2/ 789.

(2) تجارب الأمم وتعاقب الهمم لمسكويه 7/ 96.

(3) ينظر: أبو حيان التوحيدي للحوفي 1/ 10.

أو مَوضوعِ الرِّسالةِ، وهلْ تَعْنِي تَسْجيلَ المُناظراتِ بَينَ الفُقهاءِ؟، أو تَتَحدَّث عن آدابِ المُناظرةِ بَينَ الفُقهاءِ، أو ما يُوجدُ بَين الفُقهاءِ من صِلاتٍ؟، أو ما كان يَحْصُلُ عليه الفُقهاءُ من صِلاتٍ أيْ مُكافأتٍ في مُناظراتهم الفِقْهِيَّة في مَجالِسِ الخُلفاءِ والأُمراءِ؟، ليس هناك إجاباتٌ لهذه التَّساؤلاتِ، خاصةً وأنَّ الرِّسالةَ لَمْ يَنْقلْ منها أَحَدٌ، أو يَتَحدَّث عن مَضْمُونها، وما يَزيدُ الأَمْر غَرابةً هو أنَّ دِلالةَ العُنوانِ تُوحي بِبعضِ الحَقائقِ والمَعْلومات التي تَخُصُّ فِئةً من العُلماءِ وهم الفُقَهاء، وتَخُصُّ جانباً من اهْتمامِهم وهو المُناظَرة، فَلماذا لَمْ يَنْقِل منها ياقوتُ في تَراجِمه الكَثيرة؟.

(الرِّسالةُ في أَخْبارِ الصُّوفِيَّة، أو الرِّسالةُ الصُّوفِيَّة): والواضحُ من كلامِ ياقوتِ في مُعْجَمه أنَّهما رِسالتان مُخْتَلِفتان؛ فهو يقولُ في ثَبَتِ مُؤَلفاتِ التَّوحيدي: (كتابُ الرِّسالة فِي أَخْبارِ الصُّوفِيَّة، كِتابُ الرِّسَالة الصُّوفيَّة أيْضاً)[1]، وذَكَرَهما الصَّفَديُّ مُتابعاً لياقوت في اعْتِبارهما رِسالَتَيْن مُنْفَصِلَتَيْن، فهلْ ما يُمَيِّز بينهما هو كلمةُ (أَخْبار) فَتكونُ الأُولى مُتَعَلِّقة بِأَخْبارِهم وما مَرَّوا به من أَحداث ووقَائِع؟، والثَّانية تَتَكَلَّم عن الفِكْر الصُّوفِي ذاته؟، لا يَعْرفُ أَحدٌ مَضْمونَ الرِّسالتين؛ لِأَنَّهما لم يصلا إلينا ولم يَنْقِل منهما أحدٌ.

(الرِّسالةُ في الحَنينِ إلى الأَوْطانِ): وذَكَرها ياقوتُ أيضاً ولكنَّه لَم يَنْقِل مِنها، وتَابَعَه الصَّفَديُّ، وغَنِيٌّ عن البيانِ أنَّ الجَاحظَ له رِسالةٌ في الحَنينِ إلى الأَوْطانِ أيضاً، وهي مَطْبُوعةٌ ومَنْشُورة، فهَلْ تَأَثَّر به التَّوحيدي في هذه الرِّسالةِ كما تَأَثَّر به في أشياءَ كَثيرةٍ كما سنرى؟

كتابُ (الحَجُّ العَقْلِيُّ إذا ضَاقَ الفَضاءُ عن الحَجِّ الشَّرْعِي): والكِتابُ لَمْ يَصِلْ إلينا، وليس منه نُصوصٌ مَنْقُولة في أيٍّ من كُتُبِ التَّراجِم القَديمة، وقد ذَكَرَ ياقوتُ اسْمَ الكِتاب، ولم يُعَلِّق أو يُعَقِّب عليه أو يَذْكُره مرة أخرى، وكذلك فَعَلَ الصَّفَدِيُّ، والبَعضُ يُؤَكِّد أنَّ كِتابَ (الحَجِيج) هو نَفْسُه كِتاب الحَجِّ العَقْلِي، وأنَّ

(1) معجم الأدباء 5/ 1925.

هذا الكِتابَ هو الذي دَفَعَ البَعْضَ قَديماً لِرَمْيِ التَّوحيدي بالزَّنْدَقَة[1]، لكنَّ المُتَأَمِّل لِحياةِ التَّوحيدي سَيَجِدُ أَنَّه لمْ يُنْكِر الحَجَّ الشَّرْعي؛ بلْ قَامَ به وأَدَّاه، حيثُ ذَهَبَ إلى الحَجِّ في رفقة مجموعة من الصوفية مشياً على الأقدام، إضَافةً إلى أنَّ هناك منَ الباحثين منْ يُشَكِّك في نِسْبَة هذه الرِّسالةِ للتَّوحيدي[2]، وفي كُلِّ الأَحوالِ لا نَسْتَطيعُ الحُكْمَ على الكتاب وهو لَمْ يَصِل إلينا، ولمْ يَنْقِل منه أَحَدٌ أو حتَّى يَذْكُر بَعضَ نُصوصٍ منه.

وبالإضَافةِ إلى ما سَبَقَ مِن كُتُبٍ ورَسائلَ مَفْقودة، هناك مَجْموعةٌ من الكُتُب للتَّوحيدي لمْ يُشِرْ إليها يَاقوتُ ولا وَرَدَتْ في كُتُبِ التَّراجِم القَديمة، وعَلَى الرُّغم من ذلك ذَكَرَها التَّوحيدي نَفْسُه في بعضِ كُتُبِه الأُخْرى، ومنها كِتابٌ اسْمُه (النَّوادِر) يَقولُ التَّوحيدي في كتابه (المقابسات): (وهذا - أَبْقَاكَ اللهُ - كَلامٌ خَبيثٌ، وقَدْ تَكَلَّمتُ عَليه في كِتابِ النَّوادِرِ مَعَ جَميعِ عَلائِقِهِ وغَواشِيه)[3]، وَثَمَّة رِسالةٌ أُخْرى ذَكَرَها التَّوحيدي وعُنوانُها (الكَلامُ عَلَى الكَلام)، وسَوفَ نُؤَجِّلُها للحَديثِ عنها مَع مَا يَخُصُّ الكُتُب المُتَعلقة بالنَّقْدِ الأَدَبِي ولَم تَصِلْنا.

أمَّا القِسْمُ الثَّاني من كُتُبِ التَّوحيدي المَفْقُودة والتي تَتَّصِلُ بِالأَدبِ ونَقْدِه: فهي ثَلاثةُ كُتُبٍ ورَسائِلَ، وسَوفَ نُسْهِبُ في الحَديثِ عنها لِأَهَمِّيتها في الدِّراسةِ:

أولاً: (كِتابُ الرَّد عَلَى ابنِ جِنِّي فِي شِعْر المُتَنَبِّي)، وهو من الكُتُبِ التي ذَكَرَها ياقوتُ الحَمَوِيُّ في مُعْجَمِه، وذَكَرَه كذلك مُعْظمُ مَن تَرْجموا له في القَديم والحَديثِ، وكتابُ الرَّد عَلى ابنِ جِنِّي مِنَ الكُتُبِ التي لمْ تَصِلْنا لكنَّ عُنوان الكِتابِ يُؤكدُ حَقِيقَتَيْن:

1- **الحَقيقةُ الأُولى**: أنَّ التَّوحيدي كانَ يَخُوضُ غِمارَ النَّقْدِ في أَهَمِّ قَضِيَّةٍ

(1) أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء للدكتور زكريا إبراهيم ص 131.

(2) ينظر: أبو حيان التوحيدي واتجاهاته الأدبية والفنية وهي أطروحة لنيل درجة الدكتوراة للباحث عبد الواحد حسن ص 4.

(3) المقابسات ص 237.

نَقْدِيَّة شَغَلَتْ القَرْن الرَّابع الهِجْري وهِي قَضِيةُ المُتَنَبِّي وشِعْرِه بَيْنَ مُؤَيِّدٍ ومُحِبٍّ ومُدافِعٍ، وبَيْنَ مُعارضٍ وكَارهٍ ومُنْتَقِدٍ للمُتَنَبِّي، وقَدْ أَثْمَرَت هذه القَضِية الكُبْرَى – كما هو مَعْلوم – عَدَداً مِنَ الكُتُبِ الأَدَبِيَّة والنَّقْدِيَّة الكَثيرة والمُتَنَوِّعة.

2– **والحقيقةُ الثَّانيةُ التي تُسْتَنْتَج من دِلالةِ العُنوانِ**: أنَّ التَّوحيدي كانَ مُعارضاً لابنِ جنِّي، وإلا لَمَا سَمَّى كِتابَه الرَّد عَلَى ابنِ جِنِّي، لكنَّ الوَاضِحَ من ناحيةٍ أُخْرى أنَّ التَّوحيدي لمْ يَكُن مِن أَشْياعِ المُتَنَبِّي وأَنْصَاره كما سَنُبَيِّن لاحِقاً، ومن المعلوم أنَّ ابنَ جِنِّي كانَ مِن أَهَمِّ أَشْياعِ المُتَنَبِّي والمُحِبِّين له والمُدَافِعين عنه، وكان أَوَّل مَنْ شَرَحَ دِيوانَ المُتَنَبِّي، وقَدْ شَرَحَه شَرْحَيْن الشَّرْح الكَبير والشَّرْح الصَّغِير.

وليس مَعْلوماً على وَجْهِ التَّحديدِ أَكَانَ كِتابُ التَّوحيدي فِي الرَّدِ عَلَى ابنِ جِنِّي مَقْصُوداً به الشَّرْح الكَبير أمْ الشَّرْح الصَّغير؟، لكنَّ المُؤَكَّد أَنَّه لَمْ يَكُن وَحْدَه هو الذي رَدَّ عَلَى ابنِ جِنِّي فيما كَتَبَه في شَرْحِه دِيوان المُتَنَبِّي، بلْ فَعَلَ ذلك عددٌ مِن مُعاصِرِي التَّوحيدي ومَنْ جاءوا بَعْدَه، فكان هُناك حَرَكَة نَقْدية واسِعة حَوْلَ شِعْرِ المُتَنَبِّي بِصِفَةٍ عامةٍ، وحَوْلَ تَفسيرِ وشَرْحِ ابنِ جِنِّي لِشِعرِ المُتَنَبِّي عَلى وَجْهِ الخُصُوصِ مِن نَاحيةٍ ثَانيةٍ، فَمِن مُعاصِرِي التَّوحيدي الذين أَلَّفُوا في هذا المَوْضوع: (سَعْد بن مَطَر) وهو عالم باللغة والأدب ويُلَقَّبُ بِالوَحيدِ ت 385هـ، والذي أَلَّفَ كِتاباً بِعُنوان (كتابُ الرَّدِ عَلَى ابنِ جِنِّي في تَفْسِيرِهِ لِشِعْر المُتَنَبِّي)، ولَعَلَّنا نُلاحِظُ تَقاربَ عُنوانِ هذا الكِتابِ مع عُنوانِ كِتابِ التَّوحيدي المَفْقُود، ومِمَّن شَارَكَ في التَّأليفِ في هذا المَوضوع: (عَلِيٌّ بن عِيسَى الرَّبْعِي) ت 420هـ، والرَّبْعِيُّ كان عَالِماً ونَحْوِياً، وكان مِن رُواةِ المُتَنَبِّي؛ فقدْ أَلَّفَ كِتاباً بِعُنوان (التَّنْبيهُ عَلَى خَطَأ ابنِ جِنِّي في تَفْسير شِعْرِ المُتَنَبِّي)، وشارك (حَمَد بن مُحَمَّد البُرُوجِرْدِي) المعروف بابن فُورَّجَةَ ت 455هـ، ولَه كِتابان مَشْهوران: الأَوَّل (الفَتْحُ على أبي الفَتْح) و(التَّجَنِّي على ابنِ جِنِّي)، وشَاركَ كذلك الشَّريفُ المُرْتَضَي علي ابن الحسين ت 436هـ في هذه المَعْرَكة النَّقدية حَوْل المُتَنَبِّي، فَأَلَّف كِتاباً يَتَتَبَّعُ أَبياتَ المَعانِي لِلمُتَنَبِّي التي تَكَلَّم عنها ابنُ جِنِّي.

وعَلَى الرُّغم من تَأكيدِ الجَميع على تَأليفِ التَّوحيدي لهذا الكِتابِ في الرَّدِّ على ابنِ جِنِّي في شِعْر المُتَنَبِّي، إلاَّ أَنَّ ما لاحَظْناه هو عَدَم وُرُودِ اسْم هذا الكِتابِ أو الإِشارةِ إليه فِي أَيِّ مِنْ كُتُب التَّوحيدي الأُخْرى، إضَافةً إلى مُلاحظةٍ أُخْرى هامة، وهي إغْفَالُ التَّوحيدي لِذِكْر أيٍّ مِن الرَّجُلَيْن (المُتَنَبِّي أو ابن جِنِّي) في كُتُبه، وهو إغْفالٌ قدْ يَكونُ تاماً، فَلَم يُورِدْ اسْم ابن جِنَّي ولا ذَكَرَه ولا أَخَذَ مِنه ولا حَتَّى عَارَضَه مع شُهْرةِ ابنِ جِنِّي ت 392هـ وذُيوعِ صِيتِه ومُعَاصَرَته للتَّوحيدي، وكذلك شُهْرَة المُتَنَبِّي ت 354هـ، وانْتِشار أَشْعارِهِ في الآفَاقِ.

فلمْ نر التَّوحيدي يَسْتَدِلُّ به أو يَسْتَشْهِد بِشِعْر المُتَنَبِّي في كُتُبه على كَثْرَةِ ما اسْتَشْهَد بالشِّعْر، إلاَّ مَا كانَ مِن ذِكْر بَعْض أَبْياتٍ للمُتَنَبِّي في كِتابِه الإِشارات الإِلهيَّة دُونَ التَّصْريحِ بِاسْمِه، أو ذِكْرِه لِبَيْت شِعْر في كِتابِه (أَخْلاق الوَزِيرَيْن) ولمْ يُصَرِّح باسْمِه، فَهَلْ اكْتَفَى التَّوحيدي بِذِكْر المُتَنَبِّي وابن جِنِّي في كِتابِه المَفْقُود؟، وهلْ كانَ له مَوْقِف شَخْصِي أو نَقْدِي تِجاه كِلا الرَّجُلَيْن (المُتَنَبِّي وابن جِنِّي)؟، ربَّما لو وَقَع لنا كِتابُ التَّوحيدي في الرَّدِّ على ابنِ جِنِّي لَظَهَر الكِثيرُ من آراءِهِ واتِّجاهاتِه النَّقدية بِوضوحٍ وقُوَّة، سَواء فِيما يَخُصُّ المُتَنَبِّي أو النَّقد الأَدبي بِوَجْه عام.

***** ثانياً**: كِتابُ (تَقْريظ الجَاحِظ) وهو من كُتُبه الهامَّة أَيْضاً على الرُّغْم مِن أَنَّه لمْ يَصِلْنا، أَشَارَ ياقوتُ في مُعْجَمِه إلى هذا الكِتابِ كَثيراً ونَقَلَ مِنه، وقدْ أَشَارَتْ كُتُب التَّراجم القَديمةِ والدِّراسات الحَديثة التي تَحَدَّثت عن التَّوحيدي إلى كِتابِ (تَقْريظ الجَاحِظ) وأَكَّدَت نِسْبَتِه للتَّوحيدي، وكِتابُ تَقريظ الجَاحِظ كِتابٌ أَدَبيٌّ لا شَكَّ في ذلك، يَدُلُّ على ذلك اسْمُه وما نُقِل منه، وما ذُكِر عنه، وقد أَلَّفَه التَّوحيدي للإِشادةِ بِأُسْتاذِهِ الجَاحظ الذي لَمْ يُعَاصِره، والذي لَمْ يُخْفِ إعْجابَه به أيَّما إعْجاب، ونَقْلِهِ من كُتُبِ الجَاحظ في مَواضعَ مُخْتلفة.

فكانَ ممَّا قَاله التَّوحيدي يُظْهِر إعْجَابه بالجَاحِظ: (والذي أَقُولُه وأَعْتَقِده وآخُذُ به واسْتَهَام عليه، أَنِّي لمْ أَجِدْ في جَميعِ مَنْ تَقَدَّم وتَأَخَّر ثَلاثةً لو اجْتَمَعَ الثَّقلان عَلَى تَقْريظِهم ومَدْحهم، ونَشْر فَضائِلِهم في أَخْلاقِهم وعِلْمِهم، ومُصَنَّفاتهم

ورَسائِلِهم مَدَى الدُّنْيا إلى أنْ يَأْذَنَ اللهُ بِزوالِها، لَمَا بَلَغوا ما يَسْتَحِقُّه كُلُّ واحدٍ مِنْهم، أَحَدُهُم هذا الشَّيخُ الذي أَنْشَأْنا له هذه الرِّسَالةَ، وَبِسَبَبِه جُشِّمْنا هذه الكُلْفَة، أَعْني أبا عُثْمان عَمرو بن بَحْر الجَاحِظ..)، فَقَدْ خَصَّ التَّوحيدي ثَلاثةً مِن عُلماءِ المُسْلمين بِالتَّميُّزِ، وجَعَل الثَّاني هو أَبو حَنِيفَة أحْمد بن دَاود الدِّينَوَرِي ت 282هـ، والثَّالث هو أبو زَيْد أَحْمد ابن سَهْل البَلْخِي ت 322هـ، ثم قَالَ عن الثَّالثِ وهو الجَاحِظ: (فإنَّه مَنْ لَمْ يَتَقَدَّم له شَبيهٌ فِي الأَعْصُرِ الأُوَل، ولا يُظَنُّ أَنَّه يُوجدُ له نَظيرٌ مُسْتَأْنَف الدَّهْر، ومَنْ تَصَفَّح كَلامَه فِي كِتابِ أَقْسامِ العُلوم، وفِي كِتابِ أَخْلاقِ الأُمَم، وفي كِتابِ نَظْمِ القُرْآنِ..، عَلِمَ أنَّه بَحْرٌ مِن البُحورِ، وأَنَّه عَالِم العُلَماءِ)[1]، وذَكَر أبو حيَّان أيْضاً فِي كِتابِ تَقْريظِ الجَاحظ، ما قَالَه ثَابتُ ابن قُرَّة ت 288هـ في مَدْحِ ثَلاثَةٍ مِنَ المُسْلمين، وهُم عُمَر بن الخَطَّاب والحَسَن البَصْرِي والجَاحِظ.

وكِتابُ (تَقْريظ الجَاحِظ) يَدْفَعُنا للحَديثِ عَنْ الجَاحِظِيَّة كَمَدْرسةٍ في البَيَان والأَدَب تَمَثَّلها التوحيدي وهَضَمَها واسْتَوْعَبَها وتَأَثَّر بها، رُغْم فَارِقِ الزَّمَن بَيْنَ عَصْر الجَاحِظ وعَصْر أبي حيَّان، خَاصةً وأنَّ هذا التَّأَثُّر كانَ له دَوْرٌ واضِحٌ في أُسلوبِ التَّوحيدي وطَرِيقَتِه في الكِتابة.

***** مَذْهَبُ الجَاحِظِيَّة في الأَدَبِ والبَيانِ العَربي وَصِلَة التَّوحيدي به:**

شُغِفَ أبو حيَّان بالجَاحِظ واقْتَفَى أَثَرَه، واهْتَمَّ اهْتِماماً كَبيراً بِكُتُبِه يَقْرَأُها ويَنْسَخُها، وبِأَدَبِه يَتَمَثَّله ويَسْتَلْهِمُه، وبِأُسْلُوبه يُقَلِّدُه ويَسيرُ على حَذْوِه، ومِن الواضحِ لأيِّ مُتَأَمِّل لِكُتُبِ التَّوحيدي المُخْتَلِفة، ومن خِلالِ كِتابِه الذي خَصَّصَه للجَاحظ وهو (تَقْريظ الجَاحِظ) أنَّه سَيجدُ حِرْصَ التَّوحيدي على اتِّباعِ طَريقَةِ ومَنْهَجِ وأُسْلُوبِ الجَاحِظ، وتَفْنِيد حُجَجِ خُصُومِ الجَاحِظ والدِّفاعِ عنه، وإنْ كانَ هذا الكِتابُ لَمْ يَصِلْنا إلاَّ أنَّ مَنْهَجَه وطَريقَتَه وَاضِحة من خِلالِ ما ذَكَرَه التَّوحيدي نَفْسُه في كُتُبه أو مَا ذَكَرَه لِلآخَرين عَنْه، فالجَاحِظُ حَاضِرٌ فِي ذِهْنِ التَّوحيدي، يُؤَثِّر عَليه

(1) معجم الأدباء 1/ 259.

في أُسْلُوبه وبَيَانِه وطَريقَته في التَّرَسُّل والكِتابةِ، ويُدافِعُ عنه ويَقِفُ إلى جَانِبِه في بَعْض القَضايا.

وقَدْ تَكَوَّنَتْ في حَياةِ الجَاحِظ وبَعْدَ وَفاتِه مُقَوِّماتُ مَذْهَبٍ أُطْلِق عليه (مَذْهَب الجَاحِظِيَّة)، وهذا المَذْهَبُ لمْ يكنْ في عِلْمِ الكَلامِ فَحَسْب؛ حيثُ ظَهَرَتْ فيه فِرْقَةٌ من فِرَق المُعْتَزِلَة تعتنق مجموعة من الآراء تُسَمَّى الجَاحِظِيَّة[1]، وآراءُ هذه الفِرْقَة مِنَ المُعْتَزلة ومَبادِئِها مَوْجودةٌ ومَشْرُوحةٌ فِي كُتُبِ المِلَل والنِّحَل، ولكنَّ الجَاحِظِيَّة شَقَّتْ طَريقَها أيضاً إلى الأَدَبِ والبَيانِ، بِحيثُ كان هناك تَلاميذٌ وأَتْباعٌ ومُحِبُّون للجَاحِظ عَلَى تَباعُدِ الزَّمان والمَكان، اقْتَفوا أَثَرَه وتَتَبَّعوه في كُلِّ ما كَتَبَه، وكان يَحْلُو لِهؤلاءِ أنْ يُلَقِّبَهم الآخَرون، أو يُلَقِّبوا أَنْفُسَهم بِلَقَبِ (الجَاحِظ الثَّاني)، فَمِن هؤلاء مَثَلاً: أبو زَيْد البَلْخِي، وهناك من أُطْلِق عليه الجَاحِظ الثَّاني وهو أبو الفَضْل ابن العَميد، وحتَّى أبو حيَّان نَفْسُه أُطْلِق عليه الجَاحِظ الثَّاني.

وفيمَا يَبْدُو أنَّه قَدْ وُجِدَ نَوْعٌ من الصِّراعِ والتَّنازعِ على هذا اللَّقَب في أَوْقاتٍ مُخْتلفةٍ، وهناك مِنَ الدَّارسين المُحْدَثين من يُقدِّم التَّوحيدي في ذلك على ابنِ العَميد، مثل حَسَن السَّنْدوبي مُحَقِّق كِتاب المُقابَسات، الذي يقول: (وقَدْ تَنازعَ النَّاسُ في وَصْفِ الجَاحِظِيَّة بَيْنَ ابنِ العَميدِ وأبي حيَّان، فَكُلٌّ منهما يُنْعَتُ بأنَّه الجَاحِظ الثَّاني، وعنْدِي أنَّ أبا حيَّان أَوْلَى بها مِن ابنِ العَميدِ وأَحَقُّ، لأنَّ ابنَ العَميدِ كان مُقَلِّداً، وكان أبو حيَّان مَطْبُوعاً، وفَرْقٌ بَيْنَ الطَّبعِ والتَّقليد)[2].

وقد اهْتَمَّ التَّوحيدي بالنَّظَر في دَعاوَى بَعْضِ مَنْ حاولَ أنْ يَعْتَبِر نَفْسَه (الجَاحِظ الثَّاني)، وكان ذلك مُنْطَلَقاً للحَديثِ عن رَكائِزِ مَذْهبِ الجَاحِظِيَّة في الأَدبِ والبيانِ، وممَّنْ حاولَ أنْ يَعْتَبر نَفْسَه قَريباً مِن مَنْهَج الجَاحِظ (أبو الفَضْل ابن العَميد) وابنه (أبو الفَتْح بن العَميد)، لكنَّ التَّوحيدي لمْ يَقْتَنِع بهذا، ورَدَّ على تلك الدَّعاوَى، فَقَدْ ذَكَر التَّوحيدي ما قاله ابنُ ثَوابَه: (أَوَّلُ مَنْ أَفْسَدَ الكَلامَ أبو

(1) ينظر كتابنا: الجاحظ رائد البيان العربي.

(2) مقدمة كتاب المقابسات للتوحيدي تحقيق السندوبي ص 11- 12.

الفَضْل، لأَنَّه تَخَيَّل مَذْهَب الجَاحِظ، وظَنَّ أَنَّه إنْ تَبِعَه لَحِقَهُ وإنْ تَلاهُ أَدْرَكه، فَوَقَعَ بَعيداً مِن الجَاحِظ قَريباً مِنْ نَفْسِه)، ثم اسْتَعْرَض مُقَوِّمات مَذْهَب الجَاحِظِيَّة كما يراه، فقال: (ألاَ يَعْلَم أبو الفَضْل، أنَّ مَذْهَب الجَاحِظ مُدَبَّرٌ بِأشياءَ لا تَلْتَقِي عِنْد كُلِّ إنْسانٍ، ولا تَجْتَمِع في صَدْر كُلِّ أَحَدٍ: بِالطَّبْع، والمَنْشَأ، والعِلْم، والأُصُول، والعَادَة، والعُمْر، والفَراغ، والعِشْق، والمُنافَسَة، والبُلُوغ، وهذه مَفاتِح قَلَّمَا يَمْلِكُها واحِدٌ، وسِواها مَغالِق قَلَّمَا يَنْفَكُّ منها واحِدٌ..)[1].

وقد تَكَلَّم التَّوحيدي أيضاً عَن بَعضِ مَنْ كانوا يُعْجَبُون بالجَاحِظ ويُفَضِّلونه، فَذَكَر قَائِمةً من العُلماءِ والأُدباءِ، ومنهم أُسْتاذُهُ أبو سَعيدِ السَّيْرافِي، وعَلِيٌّ بن عِيسَى الرُّمَّانيُّ، وهو شَيخُ التَّوحيدي وأُسْتاذُهُ، ولِكُلِّ هذا نرجح أنَّ عُنوانَ (تَقْريظ الجَاحِظ) قَدْ اخْتارَه التَّوحيدي ليس للدِّلالة على إِعْجابِه وَحْده بالجاحظ ومَدْحه له، وإنَّما أيضاً لِتَقْريظِ هذه النُّخْبَة منَ العُلماءِ والأُدباءِ للجَاحظ، وكأنَّ التَّوحيدي أَرادَ أنْ يَجْعَلَ كِتابَه هذا مَعْرضاً لِذِكْر كُلِّ مَن قَرَّظَ الجَاحظ، ومَدَحه واتَّبَعَ طَريقَتَه.

وليسَ يَخْفَى أنَّ كُلَّ مَن أُعْجَبوا بالجَاحظ - ومنهم التَّوحيدي - قد كانَ لهم مَا يُبَرِّر هذا الإِعْجاب، وعلى رَأْسِ هذه المُبَرِّرات: أُسْلوبُ الجاحظِ المُتَفَرِّد وطَريقَته في الكِتابة والتَّرسُّل، ومَوْسُوعيَّة الجاحِظ فيما يَطْرَحُ من قَضايا، وسُخْرِية الجَاحِظ وخَلْطه الجِد بالهَزْل أحياناً، إلى غير ذلك مِنْ سِماتٍ أُسْلُوبيةٍ للجاحظ، إضافةً إلى وُجودِ قَواسِم شَخْصِية واجْتِماعية مُشْتَركة بين التَّوحيدي والجَاحظ، كان عَلَى رَأْسِها الفَقْرُ والبُؤْس وما عَاناه كُلٌّ منهما في بدايةِ حياتِه، وكِلا الرَّجُلَيْن لَمْ يَتَزَوَّج ولمْ يُعَقِّب نَسْلاً، إضافةً إلى عَمَل كُلٍّ منهما في مِهْنَة الوِراقَة ونَسْخ الكُتُب، وهي المِهْنةُ التي سَمَّاها التَّوحيدي مِهْنَة الشُّؤْم، لكنَّ مِهْنة الشُّؤْم هذه كانت هِي الجِسْر الذي أَوْصَل التَّوحيدي إلى الجَاحظ وجَعَله قَريباً منه رُغْم تَباعُدِ المَكانِ والزَّمانِ، حتَّى أنَّ التَّوحيدي قَدْ عُرِفَ بِأنَّه مُتَخَصِّص فِي نَسْخِ كُتُب الجَاحظ، يقول التَّوحيدي عَلَى لِسانِ صَديقِه أبي الوَفاءِ المُهَنْدِس: (حتَّى اسْتَكْتَبَكَ - أيْ الوَزير ابنُ

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 66.

سَعْدان - كِتابَ الحَيوانِ لأبي عُثْمان الجَاحِظ لِعِنايَتِك بِه وتَوَفُّرِك على تَصْحِيحِه..)[1].

ثمَّ أَخيراً ما كانَ مِنْ إعْجابِ شُيوخِ وأَساتِذَة التَّوحيدي بالجَاحِظ كالسَّيْرافِيِّ والرُّمَّانِيِّ، ربما يكونُ عامِلاً مُقَوِّياً ومُعَزِّزاً لإعْجابِ التَّوحيدي بالجاحظ، كُلُّ هذه العَواملِ وغَيرها قَدْ تَرَكَتْ أَثَرَها العَميق عَلَى فِكْر التَّوحيدي وعَلَى أُسْلُوبه وعَلَى ثَقافَته المَوْسوعيَّة، ومِنْ ثَمَّ على اتِّجاهاتِ النَّقد الأَدبي لَديه.

*** **ثالثاً**: رِسَالةٌ في (الكَلامُ عَلَى الكَلام): وهي رِسالةٌ أَشَار إليها التَّوحيدي في كِتابِهِ المُقابَسات، ولمْ يَتَكَلَّم عنها الكَثيرُ مِمَّن تَرْجموا للتَّوحيدي في القَديم والحَديثِ، حيث يقولُ التَّوحيدي في المُقابَسة الوَاحدةِ والسِّتِّين: (وقَالَ كَلاماً أَكْثَر مِن هذا، وقَدْ أَخَّرْتُه إنْ شَاءَ اللهُ لِرسالةٍ مَعْدودَةٍ في الكَلام عَلَى الكَلام، ثَمَرَة هذا بِتَمامِه فيها، مع سَائِرِ ما يكونُ لَه بِشَرْحٍ تامٍ وعِنايةٍ بالغَةٍ، إنْ سَاقَ اللهُ إلى غَايَتِها)[2]، وثَمَّة مُلاحظاتٌ وتساؤلاتٌ على هذه العِبارةِ أو تلك الإشارة:

الأولى: أنّنا لا ندْري هَل عُنوانُ الرِّسالةِ (الكَلامُ عَلَى الكَلام) أمْ أَنَّ لها عُنواناً آخَر؟، خاصةً وأنَّ تَعبيرَ التَّوحيدي: (رِسالة مَعْدودة فِي الكَلام عَلَى الكَلام)، لا يَجْزِمُ بِعُنْوانها، وربَّما يُشيرُ إلى مَضْمونِها أو مَوْضوعِها وأَنَّها داخِلةٌ في سِياقِ الحَديثِ عن الكَلام ونَقْدِه.

الثانية: ويُلِحُّ عَلَينا تَساؤلٌ آخَر حَوْل انْتِهاءِ التَّوحيدي من كِتابَتِها بالفِعْل، وهَلْ تَمَّت هذه الرِّسالةُ كمَا وَعَد؟، والذي يُلْقِي هذه الظِلالَ منَ الشَّكِ والتَّساؤلاتِ قولُه: (وقَدْ أَخَّرْتُه إنْ شَاءَ اللهُ لِرسالة).. فلَوْ كانَ أَتَمَّها لَقالَ إنَّه اسْتَوْفَي الحَديثَ عن هذه الأُمورِ في الرِّسالة، أو قَوله: (إنْ سَاقَ اللهُ إلى غَايتها)، وهو قَوْلٌ يُشْعِر أَنَّه لَمْ يَكُن قَدْ أَتَمَّها وَقْت الحديثِ عنها في هذه العِبارةِ، وإذا أَتَمَّها فَهَل ضَاعَت مَع ما ضَاعَ من كُتُبِه ورَسائِلِه؟

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 5.

(2) المقابسات ص 246.

الثَّالثة: أمَّا السُّؤالُ الأَهَمُّ: هل هذه الرِّسالةُ في الكَلام عَلَى الكَلام كانَتْ فِي النَّقْد الأَدَبي شِعْره ونَثْره؟، ومَا نميلُ إليه أنَّها فِعلاً في النَّقْدِ الأَدبي، وذلك لِعِدَّةِ أَدِلَّة وأسبابٍ منها: دِلالةُ عِبارة (الكَلام عَلَى الكَلام) وهِي عِبارةٌ مُوحيةٌ ومُرادِفةٌ لِمَعْنى النَّقد، وبدليل أنَّ العِبارةَ - كما وَرَدَتْ في كتابِ المُقابَساتِ - قَدْ جَاءَت في سِياقِ الحَديثِ المُفَصَّل عن الشِّعْر والنَّثْر، حيثُ خَصَّص التَّوحيدي هذه المُقَابَسَة لِكلامِ أبي سُلَيمان السِّجِسْتَانِيِّ عن النَّثْر والشِّعْر والفُروقِ بينهما، وبدليلٍ آخَر وهو أنَّ تَعْبيرَ (الكَلام عَلَى الكلام) قَد وَرَدَ لديه في مَواضِعَ مِن كُتُبِه ويَعْنِي بها النَّقْد الأَدَبي، فقد سَأَلَه الوَزيرُ ابنُ سَعْدان عنْ مَراتِبِ النَّظْم والنَّثْر، يقولُ: (فكان الجَوابُ: إنَّ الكَلامَ عَلَى الكَلام صَعْبٌ.. فأمَّا الكَلامُ عَلَى الكَلام فإنَّه يَدورُ عَلى نَفْسِه، ويَلْتَبِس بَعْضُه بِبَعْضِه، ولهذا شُقَّ النَّحْو وما أَشْبَه النَّحْو مِنَ المَنْطِق، وكذلك النَّثْر والشِّعْر وعلى ذلك)[1].

على كُلِّ حَالٍ فإنَّ هذه الكُتُب والرَّسائلَ الثَّلاثة (الرَّد عَلَى ابنِ جِنِّي في شِعْر المُتَنَبِّي) و(تَقْريظ الجَاحِظ) و(الكَلام عَلَى الكَلام) لم تَصِلْ إلينا، ولمْ نَطَّلِع على الكَثيرِ ممَّا ذُكِر فيها، باسْتِثناءِ ما نَقَلَه ياقوتُ في مُعْجَمه عن كِتابِ تَقريظِ الجَاحِظ، لكن المُؤَكَّد أنَّ هذه الرَّسائِل والكُتُب المَفْقودة كانت حَلْقَة مِن حَلَقات الفِكْر الأَدَبي والنَّقدي المُتَخَصِّص الذي حَاوَلَ أنْ يُسْهِم التَّوحيدي مِن خِلالِه فِي رَفْدِ الدَّرْس الأَدبي والنَّقدي، إضافةً إلى مَا طَرَحَه في مُجْمَل كُتُبه ومُؤَلَّفاته الكَثِيرة والمُتَنَوِّعة.

***** ثامناً: مَنْ نَقَلوا عَنْ التَّوحيدي:**

بعد أنْ فَرَغَنا مِن الحَديثِ عَن شُيوخِ وأَساتِذَة التَّوحيدي الذين تَلَقَّى العِلْم عنهم، وذِكْرِ مَنْ أَخَذَ التَّوحيدي ونَقَل عنهم من العُلماءِ والأُدباءِ، والحَديثِ عَن مَصادِره التي اعْتَمَد عليها في كُتُبه، كان لابُدَّ لِتَكْتَملَ الدَّائرةُ المَعْرفيَّةُ والفِكْريةُ التي دَارَت فِيها آراءُ وأفْكارُ التَّوحيدي، أنْ نذْكُر مَنْ نَقَلَ عن مُؤَلَّفات التَّوحيدي وأَخَذ مِنْه، وفي الحَقيقةِ فَقَد لاحَظَنا أنَّ هذه الحَلْقةَ مِن حَلقاتِ الأَخْذِ والعَطاءِ المَعْرِفي

(1) الإمتاع والمؤانسة 2/ 131.

فِي فِكْر وثَقَافة التَّوحيدي كانت مَفْقُودةً لَدَى كَثيرٍ مِمَّن تَرْجَموا للتَّوحيدي أو دَرَسوا مُؤَلَّفاته أو تَحَدَّثوا عنه في القَديمِ والحَديثِ؛ إذْ لَمْ يُشِر أيٌّ مِن هؤلاء لهذا الجَانِب أو يُعَمِّق البَحثَ فيه.

وقدْ نَقَلَ عنْ أبي حيَّان التَّوحيدي عُلماءٌ وكُتَّابٌ ومُؤَرِّخون، حتَّى بعض الذين تَحامَلوا عَليه وشَكَّكُوا في عَقِيدته، واتَّهَموه في دِينِه قدْ نَقَلُوا عَنه في كُتُبِهم، وكانَ مِن أَوائِلِ مَنْ نَقَلَ عنه مُعاصِرُه مِسْكَوَيْه ت 421هـ في كِتابِه (تَجارُب الأُمَم وتَعَاقُب الهِمَم)[1]، وقد نَقَلَ عنه الزَّمَخْشَريُّ ت 583هـ بَعْضَ الأَقوالِ في كِتابِهِ (رَبيع الأَبْرار)[2]، على أنَّ أَكْثَر مَنْ نَقَلَ عن التَّوحيدي نُصُوصاً كَثيرةً وطَويلةً هو ياقوتُ الحَمَويُّ ت 626هـ في كِتابِهِ (مُعْجَم الأُدَباء)، فقد نَقَل كَثيراً عَنْ كُتُب أبي حيَّان في مَواضِعَ مُخْتَلفة من معجمه.

وتُعَدُّ كُتُب أبي حيَّان مِن المَصادرِ التي اعْتَمَدَ عليها ياقوتُ في تَرْجَمَتِه لِبعضِ الأُدباءِ والعلماء ومنهم أبو اسْحَق الفَارسِي وأبو سَعيد السَّيْرافِي ومِسْكَويه وغَيْرهم الكَثير، بلْ كَانَتْ بعضُ كُتُب التَّوحيدي هي المَصْدَر الوَحِيد لِتَرْجَمة ياقوت لِبعضِ الأَشخاصِ مِثل تَرْجَمته لِزَيْد بنِ رِفاعَة مِن إِخْوان الصَّفا، أو ذِكْر بَعضِ الرِّواياتِ والأَحداثِ التي لَمْ يَذْكُرْها غَيْرُ التَّوحيدي، ولهذا كان ياقوت أَكْثَرَ مَنْ أَفْرَدَ للتَّوحيدي تَرْجَمةً مُسْهَبةً ومُفَصَّلةً، اسْتَقَى منها أَكْثَر مَنْ تَرْجَموا للتَّوحيدي فيما بَعْد، وقَد لاَحَظَ الصَّفَدِيُّ في الوَافي بالوَفَيات مَدَى اهْتِمامِ ياقوت بالتَّوحيدي حتَّى وَصَفَه بِالمُبَالغةِ والتَّطويل في سَرْدِ تَرْجَمَته.

وقد نَقَلَ عن التَّوحيدي غيرُ ياقوت عَدَدٌ كَبيرٌ وجَمْعٌ غَفيرٌ مِنَ المُؤَرِّخين والأُدَباءِ ومِنَ العُلماءِ في مُخْتلفِ العُلومِ والمَعارفِ، منهم عبد الكَريم القَزْوِينِيُّ ت 623هـ في كِتابه (العَزيزُ شَرْح الوَجِيز)، ونَقَلَ عنه جَمَالُ الدِّين القَفْطِيُّ ت 646هـ في كِتابِه (إِخْبارُ العُلَماءِ بِأَخْبارِ الحُكَماءِ)، ونَقَلَ عنه كذلك ابنُ العَدِيمِ ت 660هـ في

(1) تجارب الأمم لمسكويه 7/ 96.

(2) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري 4/ 89.

مَواضِعَ كَثيرةٍ من كِتابِه (بُغْيَة الطَلَبِ في تَاريخِ حَلَب)، ونَقَلَ عنه كذلك تَاجُ الدِّين بن السَّاعِي ت 674هـ في كِتابِهِ (الدُّرُّ الثَّمِين في أَسْماءِ المُصَنِّفِين)، ونَقَلَ عنه كَثيراً ابنُ خَلِّكَان ت 681هـ في مَواضِعَ مُخْتَلِفة من (وَفَيات الأَعْيانِ)، ونَقَلَ عنه كذلك ابنُ العِبْرِيُّ ت 685هـ في كِتابِهِ (تاريخ مُخْتَصَر الدُّوَلِ)، ونَقَلَ عنه أبو اسْحَق الوَطْوَاط ت 718هـ في كِتابِه (غُرَرُ الخَصائِص الوَاضِحة)، ونَقَلَ عنه النُّوَيْرِيُّ ت 733هـ في (نِهايةُ الأَرَبِ فِي فُنونِ الأَدَبِ).

وقد اعْتَبَر ابنُ تَيْمِيَة 738هـ أنَّ كَلامَ التَّوحيدي يُعَدُّ مَصْدَراً فَلْسَفِياً مِن مَصَادِرِ أبي حَامد الغَزالِيِّ ت 505هـ، حيثُ يقولُ ابنُ تَيْمِيَة عن الغَزالِيِّ: (والغَزَالِيُّ في كَلامِهِ مَادَّةٌ فَلْسَفِيَّةٌ كَبيرةٌ، بِسَبَبِ كَلام ابنِ سِينا فِي الشِّفَاءِ، وغَيْرِه، ورَسائِلِ إخْوانِ الصَّفا، وكَلامِ أبي حيَّان التَّوحيدي)[1]، ثمَّ أعَادَ ابنُ تَيْمِيَة هذا الكَلامَ فِي كِتابِهِ (بُغْيَة المُرْتادِ في الرَّدِّ على الفَلاسِفة)[2]، وجَاءَ هذا الكَلامُ عَن الغَزالِيِّ وتَأَثُّرِه بِكتاباتِ التَّوحيدي فِي تَاريخِ الإِسْلام للذَّهَبِيِّ وفِي سِيرِ أَعْلامِ النُّبلاءِ في تَرْجَمةِ الغَزالِيِّ، عَلَى أنَّ السُّبْكِيَّ في طَبقاتِ الشَّافِعيةِ الكُبْرى، رَدَّ هذا الكَلامَ، ونَفَى أنْ يَكُونَ الغَزالِيُّ قدْ تَأَثَّر بِكتاباتِ التَّوحيدي، وعلى الرُّغْم مِنْ أنَّ ابنُ تَيْمِيَة حَمَلَ كَثيراً على التَّوحيدي إلاَّ أَنَّه نَقَلَ عنه بَعْضَ الرِّواياتِ والأَخْبارِ[3]، وحَمَلَ على التوحيدي أيضاً شَمْسُ الدِّين الذَّهَبِيُّ ت 748هـ، إلاَّ أنَّه رَوَى عَنه ونَقَل مِنه في كِتابِهِ تَاريخ الإِسْلام وسِير أعْلامِ النُّبَلاءِ، وذلك في مَواضِعَ مُخْتلفة لبعضِ تَرْجماتِ مَنْ تَرْجَم لهم الذَّهَبِيُّ، ونَقَلَ عنه كذلك شِهابُ الدِّين ابنُ فَضْل اللهِ العُمَرِي ت 749هـ في كِتابِه (مَسالِكِ الأَبْصارِ في مَمالِكِ الأَمْصَارِ).

---

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية 6/ 54.

(2) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة لابن تيمية ص 449، وأورده في شرح العقيدة الأصفهانية ص 188، إلا أنه عاد وشكك في تأثر الغزالي بكتابات التوحيدي في نفس الكتاب ص 188، وينظر: تاريخ الإسلام 11/ 62، وسير أعلام النبلاء 14/ 277، وطبقات الشافعية الكبرى 6/ 247.

(3) ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص 185، وكتاب بغية المرتاد ص 329 وكتاب منهاج السنة النبوية لابن تيمية 2/ 466 حيث نقل من كتاب الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي.

وممَّن حَمَلَ على التَّوحيدي ابنُ قَيِّم الجَوْزِيَّة ت 751هـ، ولكِنَّه نَقَلَ عنه في بَعْضِ كُتُبِه مِثل كِتابِهِ (مِفْتاح دَارِ السَّعادةِ)، ونَقَلَ عنه كذلك صَلاحُ الدِّين الصَّفَدِيُّ ت 764هـ في كِتابِه (الوَافِي بِالوَفَيات)، ونَقَلَ عنه السُّبْكِيُّ ت 771هـ كذلك في (طَبَقَات الشَّافِعيَّةِ الكُبْرى)، ونَقَلَ عنه كَمالُ الدِّين الدُّمَيْرِيُّ ت 808هـ في كِتابِه (النَّجْم الوَهَّاج في شَرْحِ المِنْهَاجِ)، ونَقَلَ عنه في مَواضِعَ كَثيرةٍ ومُخْتَلفةٍ مِن كِتابِهِ (حَياةُ الحَيوانِ الكُبْرَى) حتَّى يُعَدُّ التَّوحيدي كَأَنَّه مَصْدَر مِن مَصَادِرِه، ونَقَلَ عنه القَلْقَشَنْدِيُّ ت 821هـ في كِتابِه صُبْح الأَعْشَى.

ومِمَّن نَقَلَ عنه كذلك ابنُ حَجَر العَسْقَلانِيُّ ت 852هـ في (لِسان المِيزان)، ونَقَلَ عنه جَلالُ الدِّين السُّيوطِيُّ ت 911هـ في (بُغْية الوُعَاة) وفي أَكْثَر مِن مَوْضع، ونَقَلَ عنه الدَّاوُودِيُّ ت 945هـ في (طَبَقَات المُفَسِّرين)، ونَقَلَ عنه كذلك الهَيْتَمِيُّ ت 974هـ في كِتابِه (الزَّواجِر عَن اقْتِرافِ الكَبائِر)، ونَقَلَ عن التَّوحيدي غَيْرُ هؤلاءِ كَثيرون، وسَوْف نأتي عَلَى ذِكْر مَنْ نَقَلَ عَن التَّوحيدي في أُمُورِ اللُّغةِ وقَضاياها في الفَصْلِ الأَوَّل الخَاص بالاتِّجاه اللُّغَوي في النَّقْد الأَدَبي عِنْد التَّوحيدي.

***** تاسعاً: مُقَوِّماتُ ثَقافةِ أبي حيَّان التَّوحيدي وأَثَرُها على اتِّجاهاتِه النَّقدية:**

وبَعْدَ أنْ اسْتَعْرضنا نَشْأةَ التَّوحيدي الاجْتماعيَّة والعِلْمية والمَعْرفية، بِكُلِّ ما تَتَضَمَّنه هذه النَّشْأَة مِن الحَديثِ عن حَياتِه وشُيوخِه والعُلماء الذين تَلَقَى عنهم والْتَقَاهم ونَقَل عنهم وسَمِع منهم، وأَهَم مُؤَلَّفاته وكُتُبه، ثمَّ ما كانَ مِن مَصادِرِه في كُتُبه، وذِكْرِ مَنْ نَقَلُوا عَنه وأَخَذُوا منه، كان لابُدَّ مِن إجْمالِ المُقَوِّمات العَامة التي شَكَّلَت وَعْيَ التَّوحيدي الثَّقافي والفِكْري والنَّقْدي، وهي مُقَوِّماتٌ كَثيرةٌ ومُتَنَوِّعةٌ كان بَعْضُها مُؤَثِّراً، وبَعْضُها الآخَر بَالِغ التَّأْثير، ومن هذه المُقَوِّمات:

**** 1-: شيوخه الذين تَلَقَّى عنهم العِلم، والعُلماء الذين تَأَثَّر بهم:** وقد مَرَّ بنا ذِكْرُهم حيثُ كانَ لِهؤلاءِ الشُّيوخِ والعُلماءِ أَثَرٌ بالغٌ على اتِّجاهاته العِلْمِيَّة والفِكْرية والنَّقْدية، فَقَدْ أَثَّرَ بِلا شَكٍّ أبو سَعيد السِّيْرافِيُّ كَعالِمٍ مِن عُلماءِ اللُّغةِ والنَّحو على اتِّجاهِهِ اللُّغوي في النَّقد الأَدَبي، وأَثَّرَ أَبو سُليمان السِّجِسْتَانِيُّ ومِسْكَوَيْه وغَيْرهما مِن

عُلماءِ الفَلْسَفة والمَنْطِق على اتِّجاهِه الجَمالي والمَوْضُوعي، ولا نَنْسَى تَأْثِير الجَاحِظ وَتَمَثُّله لِأُسْلُوبه البَيانِي والكِتابِي، إضَافةً إلى عَشَرات العُلماءِ والشُّيوخ والأُدباءِ الآخرين الذين الْتَقَى بهم وسَمِعَ منهم.

**** 2-: إطارُ الثَّقافةِ الشَّعْبيةِ التي أتاحتها المساجدُ وحَلقات العِلم والمجَالس**، وقَدْ اعْتَبَر الدكتور شَوقي ضِيف أنَّ (مِنْ أَهَمِّ المُؤَثِّرات العَامَّة في حَياةِ أبي حيَّان وأَدَبِه، تَغَلْغُلُ الثَّقافةِ العَربيةِ في الطَّبقاتِ الشَّعبيةِ بِمُجْتمعِ بِيئَتِه بغداد في القَرْنِ الرَّابعِ الهِجري)[1]، وتَحَدَّد هذا الإطار من خِلالِ المَساجدِ والمَكتباتِ التي أَنْشَأها الحُكامُ والخُلفاءُ، وكذلك نَشاطُ الوِراقةِ والوَرَّاقِين الذي عُرِفَت به بَغدادُ، بَل وكُلُّ المُدُنِ الإسلاميةِ في ذلك الوَقتِ.

إنَّ كُلَّ هذه العوامل قد أَنْزَلت الثَّقافةَ مِن عَلْيائِها، وجَعَلَتها - أو عَلى الأَقَلِّ جُزْءاً كَبيراً منها - يُلامِسُ النَّاس العَادِيين والطَّبقات العَامة، فَأَصْبحَ هناك ثَقافَةٌ شَعْبيةٌ مُتاحةٌ لهؤلاءِ، حتَّى بعض العُلومِ الخَاصة والمُجَرَّدة مثل الفَلْسفة قد (اسْتَحَالَتْ في القرنِ الرابعِ ثَقافةً شَعبيةً، يَتَغَذَّاها الشَّعبُ بِمُخْتلفِ طَبقاتِه في بغداد)[2] وقد كانت مَجالسُ العُلماءِ والوُزراءِ والأَعيانِ تَمُوجُ بها بَغدادُ في عَصْرِ التَّوحيدي، لِذا لَمْ يُغْفِل ذِكْرَها ورَصْد ما كان يَدورُ فيها، وتَدوين أَسْماءِ العُلماءِ والفَلاسفةِ والحُكماءِ والأُدباءِ والمُتَرْجمين بِحِسٍّ تَسْجِيليٍّ وتَوْثيقيٍّ في أَكْثرِ كُتُبه خَاصَّةً الإمْتاع والمُؤانَسة، أو المُقابَسات، وقد تَحَدَّث التَّوحيدي نَفْسُه عن أَثَرِ مَجالِسِ العُلماءِ إضَافةً إلى مُخالَطَتِه للنَّاس، حيثُ يقولُ مُوَجِّهاً حَديثَه للوزيرِ ابنِ سَعْدان: (أَيُّها الوَزيرُ، قَدْ خَالَطْتُ العُلماءَ، وخَدَمْتُ الكُبراءَ، وتَصَفَّحْتُ أَحْوالَ النَّاس في أَقْوالِهم وأَعْمالِهم وأَخْلاقِهم...)[3]، وهذه المُخَالَطةُ نَتَجَ عنها مُسْتَويان مِن مُسْتوياتِ الكِتابةِ:

(1) من المشرق والمغرب للدكتور شوقي ضيف ص 51.

(2) المرجع السابق ص 52.

(3) الإمتاع والمؤانسة 1/ 21.

الأُولى: تَسْجيلُ ما يَدورُ في مَجالِس الخَاصَّة (النُّخْبة) من العُلماءِ والكُبراءِ.

والثَّانية: تَسْجيلُ ما يَدورُ في مُعاملاتِ النَّاسِ العَادِيين مِن (العامَّة)، فَنَتَجَ عن ذلك تَوثيقٌ وتَسجيلٌ للثَّقافةِ العُلْيا مِن نَاحيةٍ، وللثَّقافةِ الشَّعبيةِ من نَاحيةٍ أُخْرى كما ظَهَر أَثَرُ ذلك في كَثيرٍ من كُتُبِه وخاصةً في (الرِّسالة البَغْدَادية).

**** 3- : مَوْسُوعيةُ ثَقافَتِه وشُمُوليةُ مَعارفِه**: كانَتْ مَوسوعيَّةُ التَّوحيدي الثَّقافية والمَعْرفيَّة مَوْضعَ اهْتمامٍ ومُلاحظةٍ من القُدامَى والمُحْدثِين، فَقَد تَكَلَّم القُدامَى عن هذه المَوْسوعيةِ بِدايةً مِن يَاقوت الذي قَالَ في مُعْجَمه عن التَّوحيدي: (وكَانَ مُتَفَنِّناً في جَميعِ العُلوم من النَّحو، واللُّغةِ، والشِّعْر، والأَدَب، والفِقْه، والكَلام عَلَى رَأْيِ المُعْتَزلةِ، وكانَ جَاحِظِياً يَسْلُك في تَصانِيفِه مَسْلَكه، ويَشْتَهِي أنْ يَنْتَظِمَ في سِلْكِه)[1]، وقالَ عَنْه: (فَهُو شَيخٌ في الصُّوفِيَّةِ وفَيْلسوفُ الأُدباءِ وأَديبُ الفَلاسِفةِ، ومُحَقِّقُ الكَلامِ ومُتَكَلِّمُ المُحَقِّقين، وإمامُ البُلغاءِ..، وهو مَعَ ذلك فَرْدُ الدُّنيا الذي لا نَظيرَ لَهُ ذَكاءً، وفِطْنةً، وفَصاحةً، ومُكْنةً، كَثيرُ التَّحصيلِ للعُلوم فِي كُلِّ فَنٍّ حِفْظُه، وَاسِعُ الدِّرايةِ والرِّواية..)[2]، وقال السُّبْكِيُّ عن التَّوحيدي: (المُتَكَلِّم الصُّوفِيُّ، صَاحب المُصَنَّفاتِ..، كانَ إمَامَاً في النَّحْوِ واللُّغةِ والتَّصوفِ، فَقِيهاً مُؤَرِّخاً..)[3]، ومِنَ المُحْدَثين يَقولُ الدكتور شَوقي ضِيف: (إذْ كَانَ أَدَبُه مَوْسوعِيَّاً بِحُكْم أنَّه ثَقِفَ مَعارِفَ عَصْرِه الفَلْسفيةَ والصُّوفِيةَ والبَلاغِيةَ واللُّغويةَ والإسلاميةَ، واسْتَوْعَبها وتَمَثَّلها كَأَرْوعِ ما يَكونُ التَّمثيلِ والاسْتيعابِ)[4].

وثَقافةُ التَّوحيدي المَوْسوعيةُ جَعَلَتْه يَتَعاملُ مع أَكْثرِ القضايا التي عَرَضَها في كُتُبِه على أنَّها تَعْبيرٌ واضِحٌ عن ثَقافةِ عَصْره بما كان يَموجُ به مِن تَياراتٍ وأَفكارٍ واتِّجاهاتٍ وقَضايا وعُلومٍ ومَعارف، لذا أَثَّرَتْ هذه الثَّقافةُ المَوْسوعيةُ على مَنْحَى الكِتابةِ النَّقديةِ عند أبي حيَّان التَّوحيدي.

---

(1) معجم الأدباء 5/ 1924.

(2) معجم الأدباء 5/ 1924 ونقل السيوطي في بغية الوعاة كل هذه الصفات عن ياقوت 2/ 190.

(3) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 5/ 286.

(4) من المشرق والمغرب للدكتور شوقي ضيف ص 53.

**** 4-: الفَلْسَفةُ والإلمامُ بِعلمِ الكَلامِ:**

ومن المَعارفِ التي اطَّلَعَ عليها ومَالَ إليها قَضايا الفَلْسَفةِ فَهْماً وشَرْحاً وتَحْلِيلاً واسْتِفْساراً منْ شُيوخِه، وكانَ التَّوحيدي أيضاً يَتَّصِلُ بِعِلْمِ الكَلامِ بِسَببٍ عَلى الرُّغْم مِن عَدَمِ انْتِمائِه لِعُلماءِ الكَلامِ، وبِدَليلِ حَمْلِه عَليهم وانْتِقادِه لهم كما مَرَّ بنا، لَكِنَّه كانَ مُلِمَّاً ومُحيطَاً بِأُسُسِ ومَباديءِ عِلْمِ الكَلامِ، حيث تَتَلْمَذ عَلى عَدَدٍ من الشُّيوخِ والعُلماءِ الذين كَانوا مِن عُلماءِ الكَلامِ.

وهذه المَعارِفُ قد أَثَّرَتْ بلا شَكٍّ عَلَى الفِكْرِ النَّقْدي لديه، فَلَم يَتَناولْ التَّوحيدي النَّقْد كَغيرِه مِن عُلماءِ العَربيةِ وأُدبائِها ونُقَادِها المُتَخَصِّصين، بل كانَ له مَنْحَى مُخْتلف بَعْض الاخْتِلافِ، ويَعودُ اخْتلافِ المَنْحى النَّقْدي عند التَّوحيدي إلى أنَّه مَزَجَ القضايا الفَلْسَفية بِمباحِثه وكانَتْ أَصيلةً في كُتُبِه، في الوقتِ الذي طَرَحَ فيه القَضايا الأَدبيةَ واللُّغويةَ والنَّقديةَ والجَماليةَ وكانتْ أَيضاً أَصِيلةً في مُؤَلَّفاته، ولهذا لا نَسْتطيعُ أنْ نَقولَ إنَّه كان فَيْلَسوفاً مَحْضاً بَعيداً عَن أَدَبِه ورُؤْيَته النَّقدية، ولا نَسْتطيعُ كذلك أنْ نَقولَ إنَّه كَانَ أَديباً خَالِصاً مُنْفَكَّاً عن فَلْسَفَته واشْتِغاله بها، ومنْ هُنا كانَ سِرُّ وَصْفِ ياقوت الحَمَوي له بأنَّه (فَيْلَسوفُ الأُدباءِ، وأَديبُ الفَلاسِفةِ)، فَلَو كانَ التَّوحيدي مُجَرَّد فَيْلَسوفٍ يَتَعاطَى الأَدَبَ أو يَتَناوَلَه عَرَضاً لَوَصَفه ياقوتُ بأَنَّه فَيْلَسوفٌ وأَديبٌ، مِثْلما جَرَى في وَصْفِ الكَثيرِ من الفَلاسفةِ الذين تَعَرَّضوا لِقضايا الأَدب في سِياقِ قَضاياهم الفَلْسَفية، ولو كانَ التَّوحيدي من الأُدباءِ الذين اهْتَموا بالفَلْسفةِ وتَعاملوا مَعها تعاملاً عَرَضِياً، لكانَ وَصْفُ ياقوت له بِأَنَّه أَديبٌ مُتَفَلْسِف، وذلك كما وُصِف به كَثيرٌ من الأُدباءِ، لكنَّ التَّوحيدي لَيْسَ من هؤلاءِ ولا من أولئك، ولهذا أَصَابَ الدكتور زكريا إبراهيم عِندما جَعَلَ التَّوحيدي على رَأْسِ طَائفةٍ مُخْتلفةٍ في تاريخِ الفِكْرِ الإسْلامِي (لأَنَّنا لا نَسْتطيعُ أنْ نَقولَ عَن أَهْلِها أَنَّهم أُدباءُ بِالجَوْهَرِ وفَلاسِفةٌ بالعَرَض، كما أَنَّنا لا نَسْتطيعُ أنْ نَقولَ إنَّهم فَلاسِفةٌ بالجَوْهرِ وأُدباءٌ بِالعَرضِ، بل هُم فَلاسفةٌ بِالجَوْهَر وأُدباءٌ بِالجَوْهَر)[1].

(1) أبو حيان التوحيدي للدكتور زكريا إبراهيم ص 3.

ولهذا لا يُمْكِنُنا أنْ نُدْخِلَ التَّوحيدي في طَائِفةِ الفَلاسِفةِ المُسْلمين مِثل الكِنْدِيِّ والفَارابِي وابنِ سِينا وابنِ رُشْد وغَيْرِهم، لأنَّ هَؤلاءِ وإنْ تَعاطَوا مَع الأَدَبِ وبَعضَ قضايا اللُّغةِ، فَهُم قَد اشْتَغَلُوا بِتلك القَضايا لا لِذاتِها بَلْ لارتِباطِها بِقضايا فَلْسَفِية عامَّة، إضافةً إلى اسْتِغْراقِ مُؤَلَّفاتُهم وكُتُبُهم في بَحْر الفَلْسَفةِ العَميقِ بِمُصْطَلَحاتِهِ ومَفاهِيمِه وقَضاياه وأُسْلوبِه المُجَرَّد، عَلَى عَكْس ما فَعَلَه التَّوحيدي الذي مَزَجَ الأَدَب بِقضايا الفَلْسَفة وخَلَطَ الفَلسفةَ بقضايا الأَدَب وعُلُومِه، ولا يُمْكِننا كذلك أنْ نضُمَّ التَّوحيدي لِفِئَةِ نُقَّادِ الأدبِ الذين تَأَثَّروا تَأَثُّراً مُباشِراً بالفِكْرِ اليوناني، كمَا فَعَلَ الدكتور إحْسان عَبَّاس عِندما جَعَلَ التَّوحيدي ثَالِثَ ثَلاثةٍ وَضَعَهم تحت عُنوان (النَّقْدُ والأَثَر اليُوناني)[1]، وجَعَلَ أَوَّلَهم قُدامة بن جَعْفر ثم الفَارابِي ثم التَّوحيدي.

وإنْ كانَ هناك مَنْ يُعِد أبا حيَّان مِن طَائِفةِ الفَلاسِفةِ لأنَّ (صِلَة التَّوحيدي بِالفَلْسَفةِ لمْ تَكُنْ عَارضةً، كما أنَّه لم يَكُنْ مُجَرَّد رَاوٍ، أو تِلْميذ يَتْبَع أَساتِذَتَه في إعْجابٍ دُونَ شَخْصيةٍ فِكْريةٍ مُسْتقلةٍ، فَصِلَةُ التَّوحيدي بالفِكْرِ والقضايا الفَلْسَفيةِ صِلَةٌ وَثيقةٌ وأَصيلةٌ، بمعنى أنَّ له فِي هَذا المَيدانِ عِلْماً وإحاطةً واهتماماً، ومِن ناحيةٍ أُخْرى له رُؤْيَته الخَاصة)، فالتَّوحيدي كمَا يَرَى هؤلاء (مُفَكِّر يَهْتَمُّ اهْتماماً مُباشِراً بالفَلْسفةِ، ويَكْتُبُ في مَوضُوعاتِها، ويُسَجِّل لأهلِها والدَّارسين لها، ويَتَناوَلُ هذا كُلَّه بِتَفَرُّده، ونَزْعَته النَّقْدِية، ومَوْقِفِه المَوْسُوعِي المُسْتفيد مِن الآخَرين، بِغَيْرِ تَبَعِيةٍ تَسْلُبُه فَرْدِيَّةَ المَوقِف، أو مَوْضُوعيةَ الحُكْم)[2]، ويَرَى كذلك المُسْتَعْرِبُ الفِرِنْسِيُّ رُوجَر أَرْنالْديز أنَّ (التَّوحيدي لَمْ يَكُن أَدِيباً مُتَفَلْسفاً فَحَسْب، بَلْ فَيْلَسوفاً وبِالذَّات..)[3].

وعَلَى الرُّغْم مِنْ كُلِّ هذه الآراءِ، فَإِنَّنا نميلُ إلى وَصْفِ التَّوحيدي بالمُتَفَلْسِف أو المُشْتَغِل بالفَلْسَفةِ أَكْثر مِن كَوْنِه فَيْلَسوفاً، فَهُو وإنْ طَرَحَ الكَثيرَ مِن قَضايا الفَلْسَفةِ

(1) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص 228 وما بعدها.

(2) الله والإنسان في فلسفة التوحيدي للدكتور حسن الملطاوي ص9- 10.

(3) أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات للدكتور عبد الأمير الأعسم ص 10.

في كُتُبِه، ونَاقَشَها وأَدْلى فيها بِرَأْيه، لَكِنَّه لَمْ يَكُن صَاحِب فَلْسَفةٍ بِعَيْنِها أو مَذْهَبٍ فَلْسَفِي مُحَدَّد، ولمْ يَقُمْ بِصياغَةِ آراءٍ فَلْسفيةٍ مُسْتَقِلة تَمام الاسْتِقلالِ، إضافةً إلى أَنَّه لَم يَقْصر حَياتَه على الجَانِبِ الفَلْسَفي كَغَيْره مِن الفَلاسِفة، فَثَمَّة دَوائِر أُخْرَى عَدِيدة أَخَذَتْ مِساحةً مِن حَياتِهِ واهْتِمامِه ونِتاجِه الفِكْرِي والثَّقافِي، منها دَائِرةُ التَّصَوُّف - النَّظَري والمَسْلَكِي - ودَائِرةُ الفِقْهِ وعِلْم الكَلام، ودَائِرةُ التَّسْجِيل والتَّوثيقِ والتَّأْريخ، وأَهَمُّ دَائرةٍ وأَوْسَعها هي دَائِرة اللُّغةِ والأَدبِ والبَيانِ والنَّقدِ، ولهذا فَإِنَّ صِفَتَه الأَدبيةَ واللُّغويةَ والبَيانيةَ والنَّقديةَ قَد غَلَبَتْ عليه أَكْثر مِن الفَلْسَفيةِ.

***** هل كان التوحيدي منتمياً لإخوان الصفا؟**

وممَّا يَتَّصِلُ بِقَضيةِ انْتماءِ التَّوحيدي للفَلاسِفةِ ما ذَهَبَ إليه الدكتور زكي مبارك مِنْ أَنَّ التَّوحيدي كانَ مُنْتَمِياً لِجماعةِ إخْوانِ الصَّفا، فالدكتور مبارك مَرةً يُؤَكِّد أَنَّ التَّوحيدي كان يَنْتَصِرُ لهم، ومرةً أُخْرى يُرَجِّحُ انْتِماءَه لَهم، يقول: (ويَنْبَغي أَنْ نُشيرُ إلى أَنَّ التَّوحيدي كانَ مِن أَنْصارِ إخْوانِ الصَّفا، ولَكِنَّه كان يَتَسَتَّر اتِّقاءً لِسَخَطِ الجُمهورِ، وكانتْ طَريقَتُه في تَأْييدِهم أَنْ يُنْطِقَ الأَشْخاصَ بِعباراتٍ مُريبةٍ) ثمَّ يَعودُ الدكتور فَيُكَرِّر بِعبارةٍ مُرَجِّحةٍ انْتماءَ التَّوحيدي لَهم ولَيْس مُجَرَّد الانْتصار، يقول: (وبِهذه المُناسبةِ نَذْكُر أَنَّ رَسائِلَ إخْوان الصَّفا ظَهَرَتْ في القَرْنِ الرَّابعِ، وهي مِن أَهَمِّ المَصادِرِ للفَلْسفةِ الإسْلاميةِ، ولا تُعْرَفُ أَسْماءُ مُؤَلِّفيها بالضَّبطِ، ولكنْ يُرَجَّحُ أَنَّ التَّوحيدي كانَ بَيْنهم)[1].

وتلك دَعْوَى خَطِيرةٌ لمْ يُسْبَقْ إليها قَدِيماً ولا حَديثاً، فلَمْ يَقُلْ بها أَحدٌ مِن القُدامَى ولا مِن المُحْدَثين الذين تَرْجَموا للتَّوحيدي أو تَحَدَّثوا عنه، وفي الوقتِ ذاتِه لا يَنْهضُ عليها دَليلٌ بَلْ إنَّ هناك مَا يَنْفِيها ويَدْحَضُها، ودَلائلُ التَّفنيدِ لهذه الدَّعْوى مِنها ما هو مَوجودٌ في كِتاباتِ التَّوحيدي نَفْسِه، ومنها ما يَخُصُّ أُسْلُوب التَّوحيدي في الكِتابةِ وتَشابُهِهِ أو عَدَم تَشابُهِهِ مع أُسْلُوبهم، ودَليلٌ يَخُصُّ أَفكارَ جَماعةِ إخْوان الصَّفا مِن خِلالِ رسائِلِهم، وما بَثُّوه فيها مِن أَفْكارٍ بَعيدةٍ كُل البُعْد

(1) النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك 2/ 143 - 144.

عنْ فِكْرِ التَّوحيدي، أمَّا تِلك الدَّلائِلُ والبَراهينُ التي تَدْحَض فِكْرة انْتماءِ التَّوحيدي لإخوانِ الصَّفا فَمِنها:

أولاً: مِن كِتاباتِ التَّوحيدي نَفْسِه، حيثُ ذَكَرَ بَعضَ أَسمائِهم وَعَرَّفَ بِبعضِ آرائِهم الفَلْسَفِية، وقَدْ وَرَدَ في الإمتاعِ والمُؤانسةِ ما يَدُلُّ على ذلك، حيثُ سَأَلَه الوَزيرُ بن سَعْدان عَن واحدٍ مِنْهم وهو (زَيْد بن رِفاعَة)، يقولُ عن سُؤالِ الوَزيرِ له: (حَدِّثْنِي عَن شَيءٍ هُو أَهمُّ مِن هذا لِي وأَخْطَر عَلَى بَالي، إنِّي لا أَزالُ أَسْمعُ مِن زَيدٍ بنِ رِفاعةَ قَوْلاً ومَذْهَباً لا عَهْدَ لي بِه، وكِنايةً عمَّا لا أُحِقُّه، وإشارةً إلى مَا لا يَتَوَضَّح شَيءٌ مِنه..، فَمَا حَديثُه؟، ومَا شَأْنُه؟، وما دِخْلَتُه؟، ومَا خَبَرُه؟، فَقَدْ بَلَغَني أَنَّك تَغْشَاه وتَجْلِس إليه، وتُكْثِر عِنْدَه، وتُوَرِّق لَه، ولَكَ مَعه نَوادِرُ مُضْحكةٌ، وبَوادِرُ مُعْجِبة، ومَنْ طَالَتْ عِشْرَتُه لإنْسانٍ صَدَقَتْ خِبْرتُه بِه، وانْكَشَفَ أَمْرُه له، وأَمْكَن اطِّلاعُه عَلَى مُسْتَكنِّ رَأْيِه، وخَافي مَذْهَبه، وعَويصِ طَريقَتِه)[1]، ويُلاحظُ أنَّ الوَزيرَ لَمْ يُشِرْ أيَّ إشارةٍ إلى انْتماءِ التَّوحيدي لِزيدِ بن رِفاعة أو لِفِكْرِه، بل أَشَارَ إلى عَلاقَةِ التَّوحيدي به ومُؤاخاتِه له، ووِراقَتِه له أيْ نَسْخِه لِبَعْضِ ما كانَ يَكْتُبُه، وقَدْ انْطَلَق التَّوحيدي يَذْكُر بَعْضَ فَضائِلِ زَيد بن رِفاعة، وعَلاقَتِه ببعضِ إخوانِ الصَّفَا، فَذَكَر أَسْماءَ بَعْضِهم.

والتَّوحيدي كانَ - كمَا نَعْلَم - يَعْمَلُ بِالوِراقَةِ والنَّسْخِ، وقَد أَشَارَتْ عِبارةُ الوَزيرِ بِأَنَّه كان يُورِقُ لهم، وقد أَتَاحَ له ذلك أنْ يَطَّلعَ على مَا كَتَبَه إخْوان الصَّفا، لَيْس بِحُكْمِ انْتمائِهِ لَهُم بَل بِحُكْمِ مِهْنَتِه التي امْتَهَنَها وهِي الوِراقةُ والنَّسْخُ، وتَطَرَّقَ التَّوحيدي إلى بَعضِ أَفْكَارِهم التي لَمْ يُظْهِرْ اعْتِناقَه لَها أو تَأْييده لها كَمَا سَنَرى، بل هو يُكَرِّر عبارة: (وقَدْ زَعَموا)، يَقولُ: (فَوَضَعُوا بَيْنَهم مَذْهَباً، زَعَموا أَنَّهم قَرَّبوا بِه الطَّريقَ إلى الفَوْزِ بِرِضوانِ اللهِ، والمَصيرِ إلى جَنَّتِه، وذلك أَنَّهم قالوا: الشَّريعةُ قَدْ دُنِّسَتْ بالجَهالاتِ، واخْتَلَطَتْ بالضَّلالاتِ، ولا سَبيلَ إلى غَسْلِها وتَطْهِيرِها إلا بِالفَلْسَفةِ، وذلك لأَنَّها حَاويةٌ للحِكْمةِ الاعْتقاديَّةِ، والمَصْلَحةِ الاجْتهاديَّةِ، وزَعَموا

(1) الإمتاع والمؤانسة 2/ 3 - 5.

أَنَّه مَتَى انْتَظَمَتْ الفَلْسفةُ اليُونانيةُ والشَّريعةُ العَربيةُ، فَقَد حَصَلَ الكَمالُ، وصَنَّفوا خَمْسينَ رِسالةً في جَميعِ أَجزاءِ الفَلْسفةِ: عِلْمِيِّها وعَمَلِيِّها، وأَفْرَدوا لها فِهْرِستاً، وسَمُّوها رَسائِلَ إخوانِ الصَّفا وخِلاَّن الوَفاءِ، وكَتَمُوا أَسْماءَهم، وبَثُّوها في الوَرَّاقِين، ولَقَّنُوها النَّاس..)[1]، فَأَينَ هذه الأفكارُ والآراءُ ممَّا بَثَّها في كُتُبِه، أو نَقَلَها عن أَسَاتِذته مِثل السِّجِسْتانِي ومِسْكَويه والعَامِريِّ ويَحْي بن عَدِي أو غيرهم.

وثانياً: التَّوحيدي يُعْلِنُ رَأْيَه بِكُلِّ وُضوحٍ في أَفْكارِ هذه الجَماعةِ، فَيقولُ بَعْد أنْ سَأَلَه الوَزيرُ عن اطِّلاعِه على رَسائِلِهم: (فقالَ: هَلْ رَأَيْتَ هذه الرَّسائِل؟، قُلْتُ: قَدْ رَأَيْتُ جُملةً منها، وهي مَبْثُوثةٌ من كلِّ فَنٍّ نِتَفاً، بِلا إشْباعٍ ولا كِفايةٍ، وفيها خُرافاتٌ وكِناياتٌ، وتَلْفيقاتٌ وتَلْزيقاتٌ، وقَدْ غَرَقَ الصَّوابُ فِيها لِغَلَبةِ الخَطأِ عليها)، فَهَلْ هذا رَأْيُ مَنْ يَنْتَمِي إلى هذه الجَماعةِ ويَتَبَنَّى أَفْكارَها؟!!، ولَمْ يَكْتَفِ التَّوحيدي بإيرادِ رَأْيِه الصَّريح في كَلامِهم، بلْ سَاقَ كَلامَ أُسْتاذِهِ السِّجِسْتانِي فيهم، يَقولُ: (وحَمَلْتُ عِدَّةً منها إلى شَيْخِنا أبي سُلَيمان المَنْطقيِّ السِّجِسْتانيِّ - مُحَمد بن بُهْرام -، وعَرَضْتُها عليه، ونَظَرَ فيها أيَّاماً، واخْتَبَرَها طويلاً، ثُمَّ رَدَّها عَلَيَّ، وقال: تَعَبُوا وما أَغْنوا، ونَصَبوا ومَا أَجْدُوا، وحَامُوا وما وَرَدُوا، وغَنُّوا وما أَطْرَبوا..)[2].

وباسْتِعراضِ بعضِ آراءِ وأَفْكارِ جماعةِ إخوانِ الصَّفا مِن خِلالِ ما كَتَبوه أَنْفُسُهم، سَيَتَّضحُ لنا بلا شَكٍّ أنَّ التَّوحيدي لَمْ يكنْ منهم، ولا مُؤَيِّداً أو مُناصِراً لهم، فمِن المُؤَكَّد لِمَن دَرَس رَسائِلهم أنَّ (المَباديء العَامَّة التي يَبْنِي عليها الإخوانُ نَظَرِيَّاتِهم في الأَخْلاقِ مُقْتَبَسةٌ مِن الدِّياناتِ المُخْتلفةِ مُوَحِّدة ومَجُوسيَّة)[3]، مع ما لَديهم مِن غاياتٍ بَاطِنةٍ لا يُصَرِّحون بها في رَسائِلِهم إلاَّ مُمَوَّهة وخَاصَّة مَيْلهم إلى العَلَوِيَّة، مَعَ ما كانَ أيضاً في دَعْوتِهم مِن رَواسِبَ وَثَنِيَّةٍ قَديمةٍ ومُخْتلفةٍ في مَذْهبِهم في الكَواكِبِ والأَفْلاكِ، واعْتقادِهم في القَرابِين والأَعيادِ بِما يُشْبِه مَلامِح مِن وَثَنياتٍ

(1) الإمتاع والمؤانسة 2/ 5.

(2) المصدر السابق 2/ 5- 6.

(3) إخوان الصفا للدكتور جبور عبد النور ص 48.

قَديمةٍ اشْتُهِرَت في الشَّرْقِ والغَرْب[1]، وغَير ذلك مِن أَفْكارٍ غَريبةٍ مَبْثوثةٍ في رَسائِلِهم، ولَمْ يَثْبُتْ لدى أيٍّ مِن الدَّارسين والبَاحثين في القَديمِ والحَديثِ لِفِكْرِ التَّوحيدي، أنَّه ذَكَر ما يُشْبِه هذه الأفكار.

وثالثاً: مَا ذَكَرَه الدكتور زكي مبارك مِن تَشابُه خَصائِصِه الأُسْلوبيةِ في الكِتابةِ مَع إخْوان الصَّفا، لا يَنْهَضُ دليلاً على انْتِمائِه لَهُم، أو على حَدٍّ تَعبيرِ الدكتور زكي (كانَ بَيْنهم)، فَلَيْس تَشَابُه الأُسْلوب - إنْ وُجِد - دَليلاً عَلَى انْتِمائِه لهم، بل إنَّ خَصائِصَ أُسلوبِ التَّوحيدي ذَاتِه مُخْتلفةٍ ومُتَمايزَةٍ، فَهَل يُمْكِن بعد كل ذلك أنَّ نَقولَ إنَّ التَّوحيدي كانَ مُناصِراً لهم، أو أنه كانَ يَتَسَتَّر اتقاءً لِسَخَط الجُمْهور، أو يُرَجَّح أنه كان بينهم.

***** تأثير الاشتغال بالفلسفة على الاتجاهات الأدبية والنقدية لدى التوحيدي:**

ونعود لنؤكِّد أنَّ اشْتغالَ التَّوحيدي بالفَلْسفةِ واهتمامَه بقضاياها، وتَتَلْمذه على يَدِ نُخْبةٍ مِن فَلاسفةِ زَمانه، كُلُّ ذلك قد أَثَّراً تَأْثيراً واضِحاً على مَنْهَجِه الأَدَبي واتِّجاهاتِه النَّقْدية، ولهذا اكْتَسَبَت عِدَّة سِماتٍ منها:

1- عُمْق الفِكْرةِ النَّقْدية بِتَأْثيرٍ مِن ثَقافَتِه الفَلْسَفية، ومنْ هُنا جَاءَ اهْتمامُ أبي حيَّان بِإبْرازِ الفُروقِ الدَّقيقةِ بَيْن الكَلماتِ المُتَرَادِفة، وتَتَبُّع المَفاهِيم وتَحْديد المُصْطَلحات والتَّفْريق بَيْن المُتَشابِه منها، كما سَنُفَصِّل في الاتِّجاهِ اللُّغوي للنَّقد الأدبي عِنْده، وهذه سِمَةٌ اشْتُهِر بِها السِّجِسْتانِي أُسْتاذ التَّوحيدي، ولِهذا لَمْ يَكُنْ غَريباً على التَّوحيدي الذي تَشَبَّع بتلك الأَجْواءِ الفَلْسَفية أنْ يَتَأَثَّر بِأُسْتاذِهِ في هذا المَوْضِعِ.

2- لقدْ كَانَ لِهذا الحِسِّ الفَلْسَفي لَدَى التَّوحيدي أَثَرُه في نَظْرَتِه للأَدَبِ واللُّغة، فهو لَمْ يَتَنَاولْ قضايا الأَدبِ واللُّغةِ بِنَفسِ التَّناولِ المُعْتادِ والمَأْلوفِ، وهذا

(1) إخوان الصفا ص 85، 87.

الأَثَرُ هو ما يُسَمِّيه الدكتور زكريا إبراهيم (الدَّهْشَة الفَلْسَفية) فمَا (كانَ للدَّهْشةِ الفَلْسفيةِ عِند التَّوحيدي وهو الأَديبُ النَّحْويُّ، أنْ تَتَوقَف عِند ظَواهِرِ الوُجودِ وأَحْوالِ النَّفْسِ، بل إنَّنا لَنَراها تَمْتَدُّ أيضاً إلى ظَواهِرِ اللُّغةِ وعَجائِبِ اللَّفظِ، ولو قُدِّرَ للتَّوحيدي أنْ يَضَعَ كِتاباً في دِراسةِ الظَّاهرَةِ اللُّغوية، لَقَدَّمَ لنا مُؤَلَّفاً مُمْتازاً فِي تَحْليلِ هذه الظَّاهرةِ الإِنْسانيةِ، التي طالَما أَثارَتْ اهْتمامَه، ولكنَّ التَّوحيدي مَع الأَسَفِ لمْ يَتْركْ لنا مِثل هذا الأَثَر، وإنْ كانَ قَدْ أَتْحَفَنا في تَضاعيفِ كُتُبِه ورَسائِلِه بالكَثيرِ منَ المُلاحظاتِ القَيِّمة)[1].

3- وُرودُ الفِكْرةِ النَّقديةِ أحياناً في سِياقِ حِوارٍ ومُناظرةٍ أو اسْتِفسارٍ وسُؤالٍ، وهو مَنْهجٌ غَيرُ مَعْهودٍ على الأَقَلِّ في كُتُبِ النَّقد الأَدَبي، وقد فَعَلَ ذلك في مَواضِعَ مُخْتلفةٍ، سَواءٌ أَكانَ الرَّأيُ له أو لأسْتاذِهِ الذي يَسْأله أو للعلماءِ الذين يَذْكُر آراءَهم، والتَّوحيدي عَلَى حَدِّ تَعبيرِ الدكتور زكريا إبراهيم هو (فَيْلَسوف التَّساؤُلِ)، لمَا يُوجدُ عنده مِن رُوحٍ تَساؤليةٍ تَعْشَق الجَدَل والحوارَ، ولا تَكادُ تَكُفُّ عن إثارةِ السُّؤالِ تِلْوَ السُّؤالِ، فَفي الكَثيرِ مِن كُتُب التَّوحيدي تَجِده إمَّا سَائلاً وإمَّا مَسْؤولاً، كما ظَهَر ذلك جَلِيًّا في الهَوامِل والشَّوامل، أو في الإمْتاعِ والمُؤَانسةِ أو في غَيْرِها مِن كُتُبِه.

4- وقدْ تَجَلَّت نَزْعَته الفَلْسَفيةُ أيضاً في أَنَّه حَاوَلَ الاخْتلافِ عَنْ سابِقيهِ أو مُعاصِريه في تَناوُلِ بَعضِ القضايا الأَدبيةِ والنَّقديةِ، وكما قال الدكتور زكريا إبراهيم عن شَخْصيةِ الفَيْلسوف عامَّة وشَخْصيةِ أبي حيَّان التَّوحيدي خاصَّة (إنَّما تَتَحَدَّد بِرَفْضِهِ لليَقينِ السَّائِد، واسْتِنْكارِهِ للبَداهَةِ السَّائِدة، وتَمَرُّده على الحَقائِقِ السَّهْلةِ اليَسيرةِ)[2]، ولعلنا نَرَى أَثَر هذه النَّزعةِ على كَثيرٍ من آرائِهِ وأَفْكارِهِ والتي سَنتناوَلَها في سِياقِ هذه الدِّراسةِ إن شَاء اللهُ.

**** 5- : الوِراقَةُ ونَسْخُ وكِتابةُ الكُتُب (حِرْفَةُ الشُّؤْم)**: احْتَرَفَ التَّوحيدي لِسَنَواتٍ طَويلةٍ - بِسَبَبِ أَوْضاعِهِ الاجْتماعِيَّة - حِرْفةَ الوِراقَةِ ونَسْخَ الكُتُب، وهي

(1) أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص 193.

(2) المصدر السابق ص 7.

المِهْنةُ أو الحِرْفةُ التي كان يَكْرَهُها حتى أَطْلَق عليها (حِرْفَة الشُّؤْم)[1]، لكنَّه كانَ مُضْطَّراً للعَمَلِ بها مِن أَجْلِ كَسْبِ عيشه، وقَدْ أَفادَته هذه المِهْنة و(مَكَّنَتْهُ تلك الحِرْفةُ مِن مُخالَطةِ طَائفةٍ مِن المُفَكِّرين في عَصْرِه، ومَعْرفَة ما اسْتَكَنَّ مِن آرائِهم، وخَفِي مِن نَزَعاتِهم)[2]، وقد رَأَيْنا - كما مرَّ بنا - أَنَّه كانَ يُورِقُ لِجماعَةٍ مِن إخْوانِ الصَّفا، فَعَرفَ عنهم ما جَهِلَه آخرون.

ولا نَنْسَى أنَّه عَكَف من خِلالِ حِرفَتِه في الوِراقَةِ على نَسْخِ كُتُب الجَاحظ، حتى عُرِف بِذلك وتَخَصَّص فيه، وأَفادَ من ذلك فَائدةً عظيمةً (إذْ جَعَلَتْه يَتَمَثَّل بِنَسْخِه لِكُتُبِ الجاحِظ أُسْلوبَه وخَصائِصَه وأَسْرارَه تَمَثُّلاً رائعاً)[3]، ومن هذه الأشياءِ أُسلوبُ الازْدواجِ وما فيه مِن التَّرادُفِ والتَّقطيعِ الصَّوتي، ولَيس أُسلوبُ السَّجْع الذي عُرِف عنْ كَثيرٍ من الكُتَّاب والأُدباءِ، فَقَد تَمَثَّل التَّوحيدي الجاحِظ في طَريقَتِه ومَنْهجه في الكِتابةِ تَمَثُّلاً واضِحاً - كما مَرَّ بنا - يَظْهَرُ لِمَنْ يَقْرأُ لِكلا الرَّجُلَين.

** 6-: **سَفَرُه وتَنَقُّله وتِرْحالُه بين بَغدادَ والرِّي وشِيراز...**، وقدْ تَحَدَّثت المَصادِرُ في القَديم والحَديث عن هذا التِّرحالِ[4]، فالتَّوحيدي بعد عام 350هـ قدْ أُتيحَ له أنْ يَنْتَقِلَ إلى أَكْثر مِن مَدينةٍ ما بين أَرَّجان وأَصْفَهان ونَيْسَابُور ومَكَّة، وبَغْداد والرِّيِّ وعَسْكَر وشِيراز، وأتاحَ له هذا التَّنَقُّل والترحال أنْ يَطَّلِعَ على بِيئاتٍ مُخْتلفةٍ، ويَتَعرَّف على حَرَكةِ الثَّقافةِ والفِكْرِ والأَدبِ في هذه البُلدانِ والمُدن، وكان ثَمَرةُ ذلك ما سَجَّلَه وَوَثَّقَه في مَواضِعَ كَثيرةٍ من كُتُبه وخاصةً في الرِّسالةِ البَغْداديةِ عَن أَحوالِ تلك المُدُن والبُلْدان، وما فيها مِن مظاهرِ الحَياةِ بِكُلِّ تَنَوُّعاتِها.

** 7-: **علاقَتُه بالصُّوفِيَّة**: وهي عَلاقةٌ واضِحةٌ تَحَدَّث عنها كُلُّ مَن تَكَلَّم

(1) أخلاق الوزيرين ص 306.

(2) أبو حيان التوحيدي وإخوان الصفا، من كتاب: مقالات العلامة المحقق اللغوي الأديب السيد أحمد صقر ص 258.

(3) من المشرق والمغرب للدكتور شوقي ضيف ص 54.

(4) معجم الأدباء 5/ 1924، وينظر: تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان 4/ 335.

عن التَّوحيدي في القَديم والحَديث، وقَد أَخَذَتْ شَكْلَيْن:

الشَّكلُ الأَوَّل: شَكْلٌ نَظَرِيٌّ وفِكْريٌّ تَمَثَّل فِيما كَتَبَه في بعضِ كُتُبِه مِثل المُقابَسَات والبَصائر والذَّخائِر عن الصَّوفِية والتَّصوف، وتَمَثَّل أَكْثر في كُتُبه ورسائِلِه التي خَصَّصَها لِمَوضوعٍ ذي اتِّجاهٍ صُوفِيٍّ وعلى رأسها كتاب الإِشارات الإِلَهية، أو الرِّسالتان المَفْقودتان في التَّصوفِ والمُتَصَوِّفين.

والشَّكْلُ الثَّاني: شَكْلٌ مَسْلَكِي عَمَلِي، فالتَّوحيدي لَمْ يَكْتَفِ بالكِتابةِ في التَّصَوُّف وعَن المُتَصَوِّفة، بل انْخَرَطَ وانْدَمَج فيهم وخَالَطَهم في مَراحِلَ كَثيرةٍ مِن عُمْرِه، وفي هذا يَقولُ له أبو الوَفاءِ المُهَنْدس، وهو يُعاتِبه: (وذَهَابُك في فُسُولَتِك التي اكْتَسَبْتَها بِمُخالطةِ الصُّوفيةِ والغُرَباءِ والمُجْتَدين الأَدْنياءِ الأَرْدياءِ..)[1]، وسَوف نَرَى أَثَر هذه المُصاحبَةِ وذلك الاخْتلاطِ في كَثيرٍ مِن كُتُبه التي وَشَّحَها بقضايا وبِعباراتٍ ومُصْطلحاتٍ تَخُصُّ عالم الصُّوفيةِ.

***** 8-: إلمامُهُ بثقافاتٍ أَجْنَبية (ثَقافَتُه غَيرُ العَربية)**:

لابُدَّ مِن أنْ نفرق بَيْنَ مَفْهُومَيْن:

الأَوَّلُ: إلْمامُ العَالِم أو المُفَكِّر أو الأَديبِ بِثقافَةٍ غَير عَربيةٍ.

والثاني: إلْمامُه بِلُغاتٍ غَير عَربيةٍ، فالمَفهومُ الأَوَّلُ قَد يَتَحَقَّق بِوُجودِ وَسائِط ثَقافِيةٍ ولُغَويةٍ عَديدةٍ مِنها التَّرجمةُ على سَبيلِ المِثال، وقد ازْدَهَرَت التَّرجمةُ في العَصْرِ العَبَّاسي، وجَعَلَت التَّواصُلَ بيْنَ لُغةٍ وأُخْرى - أو بِالأَحْرَى بيْنَ ثَقافةٍ وأُخْرَى - أَسْهلَ وأَيْسرَ على الجَميع، لذلك لَيْس هناك إِشْكاليةٌ أنْ نَقولَ إنَّ فُلاناً لَدَيه ثَقافةٌ غَير عَربية، لكنَّ ذلك لا يَجْزِم بِكَوْنه مُلِمَّاً بِلُغَةٍ أُخْرى غَيْر اللُّغةِ العَربيةِ.

ومِنَ المُؤَكَّد أنَّ التَّوحيدي كانَ مُطَّلِعاً على ثَقافاتٍ غَيرِ عَربيةٍ، وعَلى رَأسها الثَّقافة اليُونانية، لكنْ مِن غَيْر المُؤَكَّد أنَّه كان مُلِمَّاً باللُّغةِ اليُونانيةِ، ونَفْس هذا المَنْطق يُقالُ عَلى إلْمَامِه بالثَّقافةِ الفَارسِية، التي أَلَمَّ بها وإنْ لَمْ يَكُن يَتَكَلَّم بِلُغَتها

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/7.

كما مَرَّ بنا عند الحديثِ عن أَصْلِه، لذا يُمْكِننا أنْ نجْزِمَ بأنَّ التَّوحيدي لَمْ يَكُن مُلِمَّاً بِلُغةٍ مِن اللُّغاتِ غَيْر العَربيةِ، وذلك لِدلائلَ كَثيرةٍ، مِنها أنَّه لَمْ يَذْكُرْ ذلك، ولَمْ يَذْكُره أحدٌ مِمَّن تَرجموا له، حتى هَؤلاء الذين ذَهبوا إلى أنَّ أَصْلَه فَارِسِيٌّ.

فالتَّوحيدي نَفْسُه يُشيرُ بِوُضوحٍ وجَزْمٍ إلى أنَّه غَير مُلِمٍّ بأيٍّ مِن هذه اللُّغاتِ التي كان يَموجُ بها مُجْتمعُ العَصْر العَباسي وَقْتَها، حيثُ يقولُ: (وقدْ سَمِعْنا لُغاتٍ كَثيرةٍ - وإنْ لَمْ نَسْتَوْعِبْها - مِن جَميعِ الأُمَم، كَلُغَةِ أصحابنا العَجَم والرُّوم والهِنْد والتُّرْك وخُوارَزم وصِقْلاب وأَنْدَلُس والزِّنْج، فمَا وَجَدْنا لِشَيءٍ من هذه اللُّغاتِ نُصُوعَ العَربيةِ..)[1]، وبَعيداً عن المُقارنةِ التي عَقَدَها التَّوحيدي بَيْن العَربيةِ وبَينَ غَيرِها منَ اللُّغاتِ، فإنَّ ما يَهِمُّنا هنا هو عِبارتُه التي يُؤكد فيها عَدَم اسْتيعابِهِ لتلك اللُّغاتِ، ولهذا فإنَّنا نؤكد أنَّ الثَّقافة غَير العَربيةِ التي حَصَّلَها إنَّما كانت وَليدةَ ظُروفِ عَصْرِه الفِكْرية، ووليدةُ اطِّلاعه عليها مُتَرْجمةً ولَيْسَتْ وَليدةً لإلْمامِهِ بِلُغةٍ غَير العَربية.

فالتَّوحيدي لمْ يَكُن مُنْقَطِعاً عَن أَجْواءِ الثَّقافاتِ غَير العَربية (من فَارسِيةٍ ويُونانيةٍ وهِنديةٍ وتُركيةٍ) وذلك من خِلالِ تَواصُله أولاً مع أصحابِها النَّاطقين بها، وثانياً: تَواصله معَ مَجْموعةٍ مِن العُلماءِ الذين عُرِفُوا بِقُدْرتهم على التَّرْجمةِ من لغاتٍ أُخْرى غير عَربيةٍ، ولهذا نَجِدُ إشاراتٍ إلى أنَّ أَساتِذة التَّوحيدي في الفَلْسَفةِ خَاصَّةً، مِثل يَحْيَ بن عَدِي، وأبو سُلَيْمان السِّجِسْتانِي كانا يَقْرَأَن كُتُبَ اليُونان، والتَّوحيدي مُتابِعٌ لِحَركةِ التَّرجَمةِ وما يَنْتُجُ عنها من ثَمراتِ الفِكْر، ويعرف أن الترجمة قد تكون مباشرة من لغة إلى أخرى، وقد تكونُ عَبْر لُغَةٍ ثالِثةٍ وَسيطَةٍ، ولِذا نؤَكِّد أنَّه من خِلال التَّرْجمةِ وما كان مُتاحاً مِن كُتُبٍ مُتَرجمةٍ ومَنْقولةٍ إلى العَرَبيةِ، ومِن خِلالِ ما كانَ يَسْمَعه التَّوحيدي من شُيوخِه المُلِمِّين بِلُغاتٍ غَير عَرَبيةٍ، كَوَّنَ التَّوحيدي لِنَفْسِه مُقَوِّماً ثَقافياً مُسْتَمَدَّاً من ثَقافاتٍ غير عَربيةٍ.

(1) الإمتاع والمؤانسة 1/ 77.

إلا أنَّه يَجْدُرُ المَلاحظةُ أنَّ التَّوحيدي لمْ يَكُن مِمَّن تَأَثَّروا التَّأَثُّر الكَامِل بالثَّقافةِ غَيرِ العَربيةِ سَواءً الفارسية أم اليونانية، وذلك لأَنَّه لَمْ يَسْتَغرقْ فيها الاسْتِغراقَ التَّام مِثْل بَعْض الكُتَّاب والأُدباءِ، ولهذا كان حُضورُ الثَّقافةِ غَيْر العَربيةِ في كِتاباتِ التَّوحيدي حُضُوراً مُساعِداً ومُعَزِّزاً لِمَشْروعِهِ المَوْسُوعي الفِكْري والثَّقافي ولَيْس حُضور اسْتِغراقٍ وذَوبان.

وبَعْدَ أنْ فَرَغنا مِن التَّمهيدِ الذي دَرَسنا فيه كُلَّ ما يَتَعَلَّق بِحياةِ التَّوحيدي ونَشْأته وأَصْله وتَاريخ مَوْلده وَوَفاته، وأَهَم مَلامِح عَصْره وزمانه، والتَّعَرف على أَهَم شُيوخِه ومَنْ تَلَقَّى العِلْمَ عليهم، مُروراً بِمصادِرِ كُتُبه ومُؤَلَّفاته، والتَّعرف على هذه الكُتُب بالتَّفصيلِ ما نُشِرَ منها وما كان مَفْقُوداً، ومَن نَقَلُوا عنه وأَخَذوا منه، وُصُولاً إلى أَهَمِّ المُقَوِّمات إجْمالاً التي شَكَّلَت ثَقافَةَ وفِكرَ التَّوحيدي، وَأَثَّرَت في اتِّجاهاتِه الأَدبيةِ والنَّقدية، فَسَوْف نُلْقي الضَّوءَ في الفصلِ الأَوَّل على ركائزِ الاتِّجاه اللُّغوي في النَّقد الأَدبي لَدَى التَّوحيدي.